بل ابتدأت

☆

أعجبني كلمة قيلت في جلسة الثقة التي انعقدت عندنا في امس غير بعيد .. وما يهمني بعد ذلك أقيلت تلاعباً على الكلمات ، ام قيلت حقاً في معانيها التي لها . فالذي يهمني انها قيلت وقيلت على نحو واثق متفائل ثم هي وجدت سبيلها الى نفسي : في رجاء هو رجاء الرغبة ، وغبطة هي غبطة العزم المستكبر على اليأس .. لم اعد اذكر جيداً على لسان من جاءت ومرت ، وانما كل ما اذكر انها وردت في كلام احدهم رداً على من ظن ان قضية فلسطين انتهت عند ذلك الحد العاجز الذي بات لها ، وكانت الكلمة هي : ان قضية فلسطين ما انتهت بل ابتدأت .. اقول لا يعنيني في قليل او كثير كيف القاها رجل السياسة ، وانما يعنيني منها الجانب الروحي : وفيه العزيمة كيف تتحدى الهزيمة ، وفيه الامل كيف لا يقعد به المكروه عن محاولة العمل . هذا الجانب الروحي وفيه كل هذه الامكانيات ، هو الذي افسح لتلك الكلمة مكاناً في نفسي واخلى بينها وبين تقديري ذلك التقدير . نعم قد تكون هذه الكلمة في امرها كله لا تزيد عن انها من نوع ما يقال في المثل الشائع (كلمة حق اريد بها باطل) او من نوع ما اود ان اعبر (كلمة وعي اريد بها طيش) . قد تكون استعملت في حدود هذا القصد وفي مقداره ، ولكن ذلك لا يغير شيئاً من فائدتنا بها ، لا يغير شيئاً في ان نعتد بان التجربة العربية في فلسطين وان قعدت بعيداً عن الغاية منها ؛ فلا يجوز ابداً ان تشككنا بانفسنا ، ان تصيبنا في صميم الثقة بقدرتنا .

فان الظفر الحق ليس في مقدار ما تربح من اشواط ، بل في مقدار ما تجيء في النهاية ، الكاً انفاسك لم تنقطع . وفي التاريخ البعيد البعيد والقريب القريب ، صفحات مشرعة بان الهزيمة الحقيقية ليست في الميدان ، بمقدار ما هي في الروح ، في المعنوية ، في الوجدان .

ولا أباريك بعيداً فهذه الحرب الكونية الاخيرة شهدت اضخم المثل ، شهدت كيف تربح العزيمة ، العزيمة التي تشتعل دائماً وان اطمع فيها انها تشتعل في بطء . المهم ان تشتعل ولا تخبو ، ان يمتد فيها معين الزيت لا ان يمتد فيها لسان الذبالة باللاهبة ، بالومض الساطع الخادع .

فهناك حيث المنزل الحاسم ، لم تتحدث القمة بأنها شهدت الا القوافل ذات الطاقة على الاستمرار .

فكان خطأ كبيراً يبلغ مبلغ الاثم في سياسة الجماهير ، ان يهول الكاتبون ما شاؤوا في واقع التجربة وآثار رجعها البعيد ، وان يشفعوا التهويل بلهجة تنم عن اليأس البغيض والامل المدحور والثقة التي تضعضعت عند عتبة المسكنة .

ان سياسة الجماهير مكتنفة بالشوك ، وهو لا يصيب ممارسها بقدر ما يرتد فيصيب بالمس الدامي مجتمع الحس في الجمهور نفسه .

ان سياسة الجماهير تربية بكامل المعنى وان موجهيهم مربون ما في ذلك شك ، كما ليس من شك في ان الطبيعة الجماهيرية – وليسمح لنا بهذه النسبة الخطأ – لا تختلف عن مثلها في الطفولة . ففيها يسر وانسراح ، وقابلية للتعقيد المنكر والتأزم البالغ المخيف . والتربية كما نعرف في ادق مفاهيمها الحديثة هي : واسطة تحويل الارادي الى ما ليس بارادي ، اي الى شيء هو بطبيعته يستتبع صفة الجبر .

ونحن حين نعرف هذا وندرك عظم الخطأ الذي نتعرض له بالتهويل الواجف والمبالغة المذعورة وهو يستتبع طبع كل آثارهما في الاستعداد العام بطابع اللاشعور . نعم ان التهويل الذي يقصد الى الاستفزاز المثير على نحو ايجابي شيء له نفعه وله خيره ، اما ذلك التهويل اليائس المقعد فوسيلة عمل عدوة ، وسيلة عمل صهيونية – وان لم تكن كذلك في القصد – ما دام لا ينتفع بنتائجها الا الصهيونيون انفسهم .

فلنعمل اذن ولنعمل في صدق على اقناع انفسنا بانه لم يفلت بعد من ايدينا كل شيء ، وان القضية قضية فلسطين ما انتهت بل ابتدأت ، وان التجربة لم تزل بعد في حيزنا .

ولكن لكي تكون التجربة بداية حقاً اي بداية واقع ظافر ، يجب ان تكون انت نهاية حقاً اي نهاية اعداد باعث شامل يطبعك على الثقة رغم كل شيء ومع كل شيء .. ثم لا يجعل منك ريشة في مهب اعصار ، بل اعصاراً ضارياً في ملعب ريش .

عبد الله العلايلي

من باريس الى سلوى

في هيكل رودان

بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوي
مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الاول

✡

من القصور المجللة بالظلمة الكابية من دخان المصانع، الى القصر المتلألىء بالنور: نور الشمس ونور الفن ونور الازهار.

قبة الانفاليد تستضحي للشمس الزاهية، فيرف طلاؤها الذهبي الموشى بالسمرة كأنها رأس زنجية تجلل بالحلي البراق تحتهـا يرقد جثمان عظيم ، لكن مهما تبلغ عظمته فلن تساوي شيئاً بازاء تلك العظمة الاخرى التي اودعت سرها في ذلك الهيكل الجاثم الى جوار تلك القبة كأنه قزم صاغر امام عملاق جبار: لكنها ضخامة لن تغني شيئاً في تقويم الروح ، احدهمـا ، وهو نابليون ، قد بهر الدنيا بمجد زائف ، زيف الوان تلك القبة ، امـا الآخر فسيبهر دون ان يظهر ، لانه ينبع من الاعماق الاولى ، ويصدر عن السر الاول ، سر الخلق . يد الاول قد ضغطت على بقعة من التراب ، فلم تستطع الا ان تعدل خطوطاً وتغير حدوداً صناعية ، امـا يد الآخر ، رودان ، فقد امسكت بقطعة من الطين فنفخت فيها من روحها فاستحالت كتلة عامرة بالحياة : فقصـارى امر الاول انه طفل كبير اخذ الكرة الارضية بين يديه ورسم عليهـا رسوماً كرسوم الاطفال ، لا تتجاوز خطوطاً عـابثة لم تقدرها الطبيعة ، بينما الآخر كان فناناً صناعاً صور الطين وفقاً لناموس الحياة وعملاً بتصميم السر الاكبر للخالق. لهذا كان عمل الاول مصيره الى الفناء، هو واضرابه من منشئي الامبراطوريات ، مهما يطل اجلها ، اما عمل رودان واصحابه من اهل الفن فمصيره الى الخلود ، لانه قسمة من الحياة ، والحياة دائماً في حياة .

انصرفت اذن عن الانفاليد بمجده الزائف وما فيه من معارض تنشأ لاولئك الذين عبثوا بالحدود بين الامم فظنوا انهم ابدعوا شيئاً ، وزادني سخطاً عليه في ذلك اليوم ان كان فيه احتفال بجنازة واحد من اولئك ، فهرولت مسرعاً الى ناحية الجنوب حيث شارع فارن تعتصم بزاويته كعبة الفن الرفيع .

هذه الكعبـة هي قصر بـيرون Hôtel Biron الذي شيده المعماران جبريل واوبير Gabriel et Aubert ، ويقوم في حديقة غناء واسعة الارجاء ، وعند مدخله عن يمين الداخل كنيسة الحقت بالقصر لما ان اقام به « اخوات قلب يسوع الاقدس » ، ثم اضطررن الى تركه في سنة ١٩٠٤ ، فاستحال الى قصر عام يمكن من شاء ان يسكن فيه، بعد ان قضت قوانين الفصل بين الكنيسة والدولة ان يقوم على ادارته مدير قضائي .

من ذا الذي دلّ رودان على هذا القصر الرائع ، انه صديقه الشاعر رلكه Rilke . ذلك ان زوج رلكه ، كلارا ، كانت قد استأجرت شقة من هذا القصر، ثم سافرت الى اقليم هـانوفر وخلفت الشقة لزوجها الذي وجد في القصر غاية ما يرجوه، فاقام به منذ اواخر شهر آب (اغسطس) في الشقة الفسيحة المركزية في الطابق السفلي ، ثم استأجر لنفسه غرفة دائرية في الطابق الاول . اعجب رلكه بالقصر ، وسرعان ما اعلن اعجابه هذا الى صديقه رودان Rodin فكتب اليه في ٣١ – ٨ سنة ١٩٠٨ يقـول : « عليك ، ايها الصديق العزيز ، ان ترى هذا البناء الجميل والقـاعة التي اقطنها منذ هذا الصباح. ان كواها الثلاث لتطل بروعة على بستان مهمل ، فيه يرى المرء بين الحين والحين الارانب الساذجة تتواثب من خلال الاسوار القضبانية وكأنها في سجادة عتيقة ». اما رلكه فقد اقبل على عمله بنشاط ، مكباً على الطاولة من الزان التي اهداها له رودان ، فكانت « بمثـابة سهل واسع خصيب سأرتب عليه مخطوطاتي كأنها القرى» المتناثرة في بساط هذا السهل . وكان من بين هذه المخطوطات العديدة التي بدأها ثم تخلى عنهـا حيناً طويلاً ، مخطوطة رائعته الكبرى ، « صحائف مالتي لوردز برجه » التي سيقص فيها قصة شاعر شاب دانيمركي يسجل، على هيئة يوميات ، همومه ويأسه ورجاءه وما يختلج في صدره من احساس ومشاعر وهو في غرفته باحد فنادق الحي اللاتيني في باريس، فتتراءى صور مضطربة لهذه المدينة الهرمة التي تشيع في اركانها رائحة الموت

كأنه شبح دائم التجوال في طرقاتها ومن خلال غرفها وشرفاتها والفتى الحالم ، المغمور بأشباح دنياه الشمالية العامرة بأرواح آساجا وعرس فوتان ، يتلى فزعاً من هذا العالم الغريب على نفسه الذي لقيه في باريس ، وتختلط في نفسه المضطربة ذكريات اجداده الامجاد مع هذه الصور المريعة التي تمثلها المدينة العالمية ، ولعل الشعور بالجزع الكوني الذي تستشعره النفس القاطنة في المدينة العالمية الهرمة لم يوصف ببراعة مثل تلك التي تتجلى في يوميات هذا الشارد الشمالي الذي انطلق من تلافيف الغيوم الى الشمس الباهرة في مدينة النور فاستروح بواده الجزع الموحي الاصيل : وفي صورة هذا الفتى وجد رينر ماريا رلكه نفسه القلقة التي سرعان ما نفرت من باريس لما ان رآها لاول مرة ، ماذا اقول ؟ بل استمر على نفوره منها طوال حياته القصيرة بالرغم من الجاذبية الهائلة التي كانت لباريس في نفسه . وهذا هو سر باريس الغامض : فانك بقدر ما تفر منها تنجذب اليهـا . واني لاشهد هذا عن نفسي ، اي سلوى ! فأنت ترين في رسائلي اليك مـا يفيض بالقلق والجزع من تلك المدينة المليئة بالاسرار والتهاويل الضاربة في اعماق الاسطورة ، بالرغم من مظهرها السطحي الزائف الذي يبهر وحده جل الوافدين اليهـا . لهذا فأنا اقبل عليها بقدر ما اشعر بالنفور منها .

ولم يكد رودان يرى هذا القصر حتى اعجب به فانتقل اليه في الثاني عشر من ايلول (سبتمبر) من العام نفسه (سنة ١٩٠٨) فاستطاع الشاعر والمثال ان يستأنفا الحياة معاً ، بعد ان قضت فترة جفاء بينهما ان ينفصلا في ربيع سنة ١٩٠٦ . جفاء عابر ما هو الا استجابة لنزوة طارئة اصابت رأس رودان فغضب على صديقه الذي اقام لديه فترة تبلغ خمسة اشهر او يزيد في مقامه بضاحية ميدون كاتباً له يعنى بأمر مراسلاته ، ومن هذه اللحظة التي اقام فيهـا رودان بقصر بيرون ، كان مصيره ان يرتبط بهـذا القصر الذي اصبح اليوم متحف رودان .

اجل ان مرسمه الاصلي في ضاحية ميدون Meudon لا يزال له كل جلاله ، وهو يرف من فوق الرابية الشامخة في غابات ميدون الرائعة كأنه قصر من البلور بجدرانه الزجاجية المغمورة في فيض من النور ، لهذا وجدت نفسي في غير حل من زيارة هذا المرسم حتى تكتمل في نفسي الصورة عن هذا المبدع الاكبر ، فارتحلت ذات يوم اشتد قيظه الى تلك الضاحية برفقة صديقين كان احدهما المزاح كله . وسلكت طريقي اليه بين بيوت ريفية انيقة صغيرة تسلقتها اغصان الجهنمية والورود ، وعمرت بساتينها بالازهار الزاهية الخارقة الالوان . ثم صرت الى حرم ذلك المرسم فاستقبلنا نباح كلاب تبدو فيها الضراوة . ثم دخلنا قبالة المرسم الزاهي حيث استقبلني تمثال المفكر يدعوني الى التأمل والخشوع ، فـأنا داخل حرم الفن المقدس . هنا في هذا الحرم سأستطلع رودان وهو يعمل ، سأرى كيف كان يرسم مجملاً له esquisses ثم ينقلها الى الطين ، هذا الحمأ المسنون ، فتستحيل كائنات حية صغيرة من الجبس الناصع هي الاجنة الناعمة الخارجة من رحم هذه اليد الصناع . هنـا تفرشك هذه الممثولات والنماذج مما اضمرت من اسرار فنية . فتكاد تحس في هذا المرسم بأنك تقاسم الفنان بفضولك الزائف ، شأنك شأن من يقف عند كتف الفنان وهو يكتب او يرسم ، او يترصد من زاوية كيف يبدع المبدع آثاره . لهذا استولى عليّ ، وانا في داخل المرسم ، شعور انتهاك الحرمة والفضول المقتحم المتهجم ، حتى كدت استشعر وخز الخطيئة في اعماق نفسي ، فلم استطع المكث طويلاً وعدت ادراجي الى باريس ، التمس الكفارة على مذبح الهيكل ، الهيكل الذي يدعى متحف رودان في ناحية شارع فارن .

هنا الفنان قدم اليك آثاره في صورتها النهائية ، فلا انتهاك لسر ولا شعور بعدئذ بوخز خطيئة . ادخل عن يمين حيث الكنيسة القديمة تؤوي طائفة من النماذج الجبسية والاصول الاولية لبعض آثاره . هنا ستجد خصوصاً النموذج لتمثال اعيان كاليه الذي صنعه رودان ارضاء لرغبة مدينة كاليه حينما ارادت في سنة ١٨٨٤ ان تخلد ذكرى اوستاش دى سان بيير Eustache de Saint-Pierre الذي كان مثال الشجاعة والوطنية والتهذيب الحاتي ، فوكلت الى رودان امر هذا التمثال . فأقبل على العمل تحدوه الرغبة في ان يصنع تمثالاً ضخماً يتحدى به القدرة المعمارية والنحتية معاً . وكان قد قرأ في اخبار القرن الرابع عشر مغامرة ستة من اعيان مدينة كاليه شاءوا ان يقدموا حياتهم لملك انجلترة فداء لمدينتهم المحاصرة من النهب والدمار . فرأى ببصيرته ان هؤلاء الستة يكونون مجموعة لا تنفصم عراها ، فمن الظلم ان يفرد لاحدها وحده مكانة خاصة ، فينحت له وحده التمثال ، وليتكلف التمثال من الجهود والوقت والمال ما يتكلف ، فنبل العمل يقتضي نبل البذل ، ومن اجل هذا درس الاجسام العارية وفقاً لنماذج حية ، ثم كسا هذه الاجسام بالقميص الخاص بالمحكوم عليهم بالاعدام . وتلك كانت طريقة رودان : ان يبدأ بالعاري ، ثم يكسوه ، ثم وضع الاجسام الستة على مستو واحد ، على نظام من السير ، وهم في الطريق الى حتفهم ولم يشأ رودان ان يصنع هذه المجموعة على قاعدة ، بل رغب ان تكون في مستوى الارض ، وفي قلب المدينة ، حـتى يختلطوا

بأهلها ، وكأنهم منها . أليسوا فلذة كبدها ، وبضعة من لحمها الحار الحي ؟! وكان ذلك بدعة هائلة سرعان ما صرخ في وجهها النقاد التقليديون ، فطلبوا منه ان يعدل مشروعه ، فأصر عليه ، واصر كذلك على ان يأخذ تمثاله صورة تكعيبية، لا هرمية ، فان الصورة الهرميه « هي ، كما قال رودان في كتابه الى عمدة كاليه ، صورة عفى عليها الزمان في نحت التقليديين . . اما المكعب فيعطي تعبيراً بينما المخروط هي التكئة الرخصية التي يلجأ اليها التلاميذ المتقدمون لمسابقة جائزة روما . . وانا الخصم الالدود لهذا الفن المسرحي »

في هذه المجموعة تبدهك التعبيرات المرتسمة على وجوه هؤلاء الاعيان الستة وفي حركات قاماتهم وأيديهم . فيهم عزم على الموت في اذعان مستبشر بحسنى العاقبة وجلالة التضحية ، وفي شفاه اولهم عن يمين تصميم وقوة ارادة يؤازر على احداث اثرها قبضتا يديه ، وفي قسمات اوستاش سموساج ينبع من صدق الايمان العميق ، التأثر القوي باد على وجوه الجميع ، لكن ليس فيه صراخ : ومشكلة اللاوكون Laocoön المشهورة تجد هنا حلاً رائعاً فيه مزيج من الالم الجارح والهدوء المذعن . حقاً لن تجد في هذه المجموعة ذلك السجو الخالد الذي تراه في النحت المصري ، وكما يقتضيه النقاد عامة في النحت بوصفه الفن السكوني ، لكن يجب مع ذلك ان يقال ان رودان لم يسيء استخدام العواطف الجامحة بشكل ظاهر او مستشبع ، والطابع الحركي الديناميكي الذي يتمثل بكل قوة في كل ما اخرجته يد هذا الفنان التأثري لا يجافي كثيراً الروح الاصيلة او الظاهرة الاولية لفن النحت ، فلا يسرفن احد في الانحاء على رودان باللائمة في هذا الباب ، وان كان الفن المعاصر يحاول كثيراً ان ينأى جانباً عن التأثر برودان . والطابع الباروكي كذلك ليس ظاهراً في هذه المجموعة التي كان يخشى عليها تماماً ان تنحدر الى باروكية ميكلنجلو Michelangelo في تمثال موسى ، وان كان ثمت مشابهة لا تنكر بين فن رودان هنا وبين فن ذلك النحات الايطالي الاكبر . ثم في هذه المجموعة كذلك وحدة ، وحدة حقيقية باطنة ، لا ظاهرة تنبع من وحدة الفكرة التي سعى لتحقيقها اولئك الاعيان الستة ، بل هي وحدة ناشئة كما يقول رودان « من البساطة ، والبساطة في الفن معناها الانسجام . فالبساطة تحدد العناصر الجوهرية ، لكن ليس معناها الفقر ، بل بالعكس ، فان التبسيط لا يتم الا بدقة الملامح ، فالبساطة اذن تنتج عن الحقيقة » . وقد فكر رودان – بعد ان تم وضع التمثال – في زيادة هذه الوحدة في المجموعة وتوكيدها وذلك بأن يضع تمثال كل في مخلاة ، لا ان يجعله يرتدي قميصاً . « فالمخلاة اجمل ، وفيها زيادة في توحيد المستويات ، فيزداد مجموعها تماسكاً . ولكني لم اتجاسر » . وبودنا ان نرى مثالاً يحاول اليوم ان يحقق امنية رودان هذه لنرى ما عسى ان يكون اثر هذا التجديد الخارق .

ورودان انما رمز في كل صورة من هذه الصور التجسيمية الست الى معنى خالد يستشفه المرء تفصيلاً بعد ان يستكشف المعنى الرمزي الواحد للمجموعة كلها . والتعبيرات التأثرية البادية على الوجوه ليست طارئة ، بل فيها الخلود الذي يقتضيه دائماً فن النحت شرطاً اساسياً لوجوده . فرودان ، كما قال عنه رلكه ، كان حينما « يبدع صورة فكأنه ينشد في الوجه المقصود تمثيله ، الخلود ، تلك القطعة من الخلود التي بها يشارك هذا الوجه في التيار العظيم للاشياء الخالدة » . وهو لهذا كان يسعى الى تصوير الاشخاص من باطن ، اعني ان يستشعر في نفسه تجربتهم الروحية العميقة ، ثم ينفخ في الطين من روح تلك التجربة ، فيستحيل الى تمثال عامر بالحياة العضوية ، الحياة التي يرى تيارها الخالد ابداً . ولهذا المعنى يجب ان نفهم كل ما فعله رودان في باب تمثيل الاشخاص portraits هذا القسم من النحت الذي قد يوهم المرء انه يخرج على الظاهره الاولية لهذا الفن ، برسمه العابر ، اعني الشخص الفاني ، وهذا الوهم ان صدق بالنسبة الى النحاتين من الطراز الثاني والثالث ، فلا يصدق بالنسبة الى رودان واضرابه من فناني الطراز الاول . فهو في تمثال فكتور هيجو قد شاء ان يصور بالتجسيم فيض العبقرية الشعرية حينما تصبح صوتاً من البلور الرنان ، وفي تمثال بلزاك – القائم الى جواري في شارع رسباي قبيل التقائه بشارع مونبارناس ، – نرى صورة القصاص الخالق لعوالم انسانية كلها تفيض بالحياة الضخمة ، ولوانه لم يتم هذا التمثال الاخير ، الذي فيه حاول كذلك ان يتجه الى النحت ذى الحجر الواحد ، فجاء قطعة واحدة من الصخر الصلد ، كما كانت عبقرية بلزاك صخرة صلدة تحدت كل اعياء . وهو ايضاً في التماثيل العديدة التي صنعها صوراً لاشخاص - مثل الرسام بوفي دي شفان او مسز سمبسون او برنرد شو او كليمنصو – قد رغب في ان يجسد الحجر او المرمر او البرنز المعنى الاعلى الذي يمثله كل .

ويلوح ان سر الجسد كان له على رودان تأثير غريب ! فهذا الاثر هو اشد ما يبقى في نفسك حينما تزور القسم الرئيسي من المتحف وهو القائم في القصر نفسه فتتوالى امامك مواكب من اسرار الجسد والشهوة اطلق فيها رودان لقدرته الفنية كل مجراها . ها هو تمثال « الصنم الخالد » (سنة ١٨٨٩) ، يصور لك امرأة واقفة ورجلاً راكعاً جاثياً على ركبتيه يقبل بعنف مركز الاشعاع الجسدي في المراة ، اعني صرتها ! هنا عرامة الشهوة في الرجل تتعارض واستسلام المراة الرخي في شعور بالاذلال لهذا العابد النهم ، حتى انك لترى السيادة للمراة برغم ما يبدو على وجهها من استسلام زائف ، والاستعباد لهذا الغرثان ، وفي تثنيات بدنه تعبير هائل عن قوة الشهوة المتضرمة في خلايا بدنه الصلب . واشباه من هذه الاحساس تمروك حينما ترى « الحب وبسيشيه » (سنة ١٨٨٦) و« القبلة » (سنة ١٨٨٦) ، و« الربيع الخالد » (سنة ١٨٨٦) ، وما اليها .

ويشهد الله اني ما تمنيت شيئاً في اللحظة التي كنت فيها قبالة هذه التماثيل الاخيرة الا ان تكوني الى جواري يا سلوى ، فتتذوقين معي جمال هذه الآثار الرائعة ، التي لا يقدرها حق قدرها الا من كانت نفسه عامرة بالاحساس والعواطف الملتهبة التي تجمع امثالها بين كلينا ! فهل تتحقق هذه الامنية الجميلة الاثيرة لدي فوق كل الاماني ، امنية ان نلتقي هنا معاً ، ونقف طويلاً حالمين امام هذه الروائع الحية التي خلقها ذلك الخالق الآخر ، اوجيست رودان ! .

باريس

عبد الرحمن بدوي

حاجتنا الى التنظيم الثقافي

بقلم يوسف اسعد داغر
احد امناء دار الكتب اللبنانية

☆

انى اجلت الطرف في هذا المسمى الجغرافي المعروف بالشرق، رأيت ان كل ما فيه، في كلا شطريه : الادنى والاوسط يدعو بالحاح الى التنظيم على اسس مكينة من العلم والفنية في غمرة من الامل والرجاء والاخلاص . فمقتضيات الوجود وموجبات الحياة والسير مع ركب الزمن والكفاح في سبيل البناء المركز والعيش الافضل ، كل هذا يتطلب، لدى الفرد والجماعة ، هذا التنظيم الذي لا يستقيم بدونه لشعوب هذا الشرق وامه واقوامه مقومات البقاء والتصميم الاكمل والتوجيه الامثل والفعالية في العمل . كل هذه الشروط الاساسية للوجود تتقاضي حتماً ، بناة الامم ، التمكين في اسس البناء الدولي الذي يشيدون والتركيز الوثيق له بما يتلاءم ووجوه النشاط الذي تتفتح عنه الحياة في كل من الفرد والجماعة .

وهذا التنظيم يجب ان يقوم على قواعد اصيلة من العلم والفنية تساير الزمن وتراعي سنة التطور . فلكل عصر ومصر مقتضيات من العيش تختلف باختلاف صروف الدهر وظروفه . فان لم يراع البناؤون هذه المقتضيات في ما ينشئون من دول وحكومات ويضعون لها من خطط واهداف ويوجهون فيها من حركة مبدعة خلاقة عامرة بالايمان الحار والرجاء الاخضر فعبثاً ما يسعون اليه وباطلاً ما يأتون من حركات وسكنات .

هذه بعض الشرائط المقدمة للعمل الانشائي الذي يرمي الى تنشئة الامم وتمكين وسائل العيش لها وتوفير سبل الحياة امام الاجيال العتيدة والاجيال الطالعة او التي تطلع . كل ما عدا ذلك سراب لمع ، وآل غرار خداع !

وان لم تستقم هذه المقومات للبناة المنشئين ، ولم تتوفر في الزعامة والقيادة هذه الاركان في ما يحاولونه من انشاء وخلق وابراء ، جاء المولود طرحاً سقيطاً لا يصلح للحياة ، وهل الجنين كسيحاً مسيخاً لا يستقيم له العيش مهما تفننوا في نسج الاقماط ومهما غالوا في اعداد جو المخاض واصلحوا من مكيفات المحيط ، حتى اذا ما تثاقل الجو ونفخت فيه ريح صرصر سموم ، ضاقت منافس العيش واحرنجمت مزارده فمات فطيساً خنيقاً .

تلك هي سنة العيش في الحي من الافراد والجماعات والشعوب والامم . فان اغفل البناؤون او تغافلوا نبهاً او عمداً مراعاة شرائطها ، كانوا من حيث يدرون، ضالين مضلين ، واهمين موهمين فتعرضوا، اذا ما خصحص الحق وارتفع الزبد، للعنة الاجيال وسخط التاريخ وهزئه ، مهما علت او تعالت نغمة الابواق المزمرة .

قدمنا هذا الكلام جملة ، ونحن نرنو الى الاحداث الاخيرة التي المت بالشرق العربي فهزته ، وحملته من الكهارب الذرية شحنة لا يعرف غير علام الغيوب ، ما عسى ان تنتهي اليه طاقتها من صيرورة في ذات كيانه وذات حياته ، وقوالبه واطاراته . كل هذا ونحن ابعد ما نكون، مسلكاً وعملاً ومنصرفاً ، عن السياسة وما استقر من مفهومها في الاذهان لدى ربابنتها او العامة من الناس .

دعانا الى هذا التفريج من الرأي والتنفيس له بهذه الاجماليات او العموميات في شروط التأسيس والتركيز في خلق الامم وابداع الشعوب والحكومات ووجوب افراغها في قوالب وأطر ينتظمها سلك من التنسيق والايقاع تتسع معه للحياة ولمقتضيات تطورها ، نعم دعانا الى هذا كله ، ما نراه من تضعضع في البناء الفكري والثقافي في هذا الشرق العربي ، هذا البناء الذي يجب ان يكون واسطة العقد والاس الوطيد لكل ما يقوم في دولنا وشعوبنا وحكوماتنا من نظم سياسية واجتماعية واقتصادية وعمرانية تتكشف عنها وجوه الحياة في منبسطها وتفتحها الشامل . فان احسنت تنشئتنا الثقافية والفكرية استقامت بالتالي ، نتيجة لذلك ، اسس بنائنا الدولي والحكومي واستقام خيطها المشدود وانتظم غرارها على اصول تضمن الحياة وتصمد للدهر ، مهما قسا وجهه وتجهمت اقداره وكرت علينا نوائبه ، والا انهار البناء وتساقط سقوط الصرح المشاد على الرمل الزلق الزحيل .

يشهد الله ، وهو خير الشهود ، ان التنظيم الثقافي في الشرق العربي ، كان ولا يزال ولن يزال ، مستقر النفس ، نلهج به ليل نهار ، تعمر به خاطراتنا وهواجسنا ، ويلهج منابه القلب واللسان ويوجه نشاطنا وعملنا في كل ما نقرأ او نكتب او ننشر .

وان كان من حاجة بعد هذا ، لدليل على ما نقول فاننا نحيل القارئ، بكل تواضع الى ما نشرته لنا مجلة « الاديب » الغراء من ابحاث في سنواتها الثلاث الاخيرة . فكلها ، تعالج هذه الناحية ، وتلفت نظر المسؤولين هنا وهنالك، بوجوب العناية بهذه الناحية من عملنا الانشائي القومي . وما مؤلفنا : « الشرق في الادب الفرنسي

بعد الحرب » ، وما كتابنا « فهارس المكتبة العربية في الخافقين » وكتابنا الثالث : « دليل الاعارب الى علم الكتب وفن المكاتب » الا جزء من كل مما اعددنا في سبيل تنظيم ثقافتنا العربية ، بوضعنا « معجم مصادر الثقافة العربية » الذي يضم اكثر من نصف مليون من المراجع والمصادر .

تبدت لنا هذه الافكار التي وضعناها تحت انظار القارىء الكريم ، بصورة اهاجت فينا الاشجان والاحزان ، عندما كنا نطالع ، لبضع ايام خلت ، في احدى النشرات العلمية التي تصدر عن منظمة الاونسكو بعنوان « بريد الاونسكو » مقالا يدور حول مدى ما بلغه التنظيم العلمي والثقافي في الغرب . وقد ذكر الكاتب في معرض بحثه القيم ، ان ما ينشر سنوياً في مجلات الغرب العلمية والفنية ، يبلغ نحواً من ٧٠٠،٠٠٠ مقال في مختلف وجوه العلم والادب والفن وهي لعمري ثروة ماتعة تلقحها فيها من عناصر الخلق والابداع والانشاء ، قرائح الاديب والفنان والعالم والصانع ، فتتبلور وجوه هذا اللقاح ، عملياً ، في شحذ الآلة المفكرة والمبدعة ، وفي ارهاف ادوات الموت والحياة التي يعمد اليها الغرب في سطوه .

ويشكو الباحث في مقاله هذه ، متململا متبرماً ، كيف ان نصف هذا العدد من تلكم المقالات فقط يصل الى جمهور المثقفين ، عن طريق الايجاز والتلخيص والتعريف والتبسيط والنقد ، ويأسف كثيراً ، ان يظل القسم الثاني من هذا المحصول الفكري ، مقصوراً على اصحاب الاختصاص وحدهم فلا تتعدى فائدته هذا الفريق من الناس ، وقد يعدون بالالوف . ويتساءل بحرارة ، بعد هذا ، عما عسى ان تكون امثل السبل لتبسيط هذه الثروة الفكرية واشاعتها بين الملأ الاكبر من الجماهير المثقفة .

هذا بعض ما يجري في الغرب المفكر . وتعجب بعد هذا ، يا اخي العربي ، أأشأمت ام أيمنت ، أأعرقت ام امصرت ، من سطوة الغرب وسيطرته وتعاليه !

واني اسأل بدوري ، ايا كان من المنظمات والهيئات الثقافية في الشرق العربي ، رسمية كانت ام عرفية ، ما الذي يصلنا ، من هذه الحصيلة الفكرية التي اشرنا اليها ؟ واذا ما وصلنا منها شيء ، فاي مؤسسة رسمية تتولى التعريف به الى جماعة المثقفين في هذا الشرق ، وما هي الذرائع التي تعتمدها في ذلك والوجوه التي تأخذها للوصول الى التعريف بهذا المخزون العلمي ؟ فما هو المعهد او المنظمة او الهيئة او النشرة التي تتولى . في لبنان ، او في مصر ، او في الشام ، او في العراق ، او في جامعة الدول العربية ، التعريف بهذا الفيض العلمي الذي تطلع انواره الكواشف على الغرب فتلقحه بما رأينا وسمعنا من مدهشات الاكتشافات والاختراعات والابتكارات ؟ وليس من ينكر ان بين هذه الثروة الطائلة سنوياً ، ما يتصل بنا امره او يبحث مشاكلنا ومصائرنا ومقدراتنا ، او مما يمت الى اسباب الموت والحياة فينا . هناك يدرسوننا ونحن هنا قابعون قانعون بالتغني بامجاد الآباء والجدود ومآتي السلف الكريم !

الى الغرب في هذا المضار . فلن نلحق به وغطيطنا المتصاعد يدغدغ منه القلب والخاطر ، فيتهالك ، فكروه ليزيدونا اغفاءة وهجعة فينصرفوا الى تحقيق اطماع دولية في هذه «المغنمة» من الشرق حيث تبدو النواطير ساهية لاهية ، تترصد فيه الريح بعد ان اشرقت بها جنباته .

اني اتحدى اية مؤسسة او مصلحة ثقافية ، رسمية او عرفية ، في الشرق العربي ، ان تعطينا ، ولو بصورة تقريبية ، فكرة صحيحة عن مبلغ النشاط الفكري والثقافي ، ممثلا في دور النشر ومجلاته العلمية ودورياته الادبية والفنية ، على قلتها ! * فيا لضيعة هذه الثروة الادبية والعلمية والفكرية ، على ندرتها ، ويا لخسارة هذا المجهود الضائع الذي يقوم به الكاتب او المؤلف او المنشىء لتبسيط العلم وتيسيره ، اذا كان يجب ان يظل تناوله مقصوراً على بضع عشرات او مئات من القراء او المشتركين الاتباعيين !

ويحز في النفس حزاً ان ليس في الافق ما يشير من قريب او بعيد الى ان هذه الحالة المريرة سيصار الى تلافيها بوجه من الوجوه ، كما ذكرنا ونشرنا ، في مثل هذه الحالة من العوز والتنظيم ؛ على اساس من العلم والفنية ، في مختلف مقوماته ومكوناته !

ولذا جئنا بهذه الكلمة ، وقد اردناها صرخة داوية ، نطلقها في آذان منظماتنا الثقافية ، وبين اعضاء اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية وفي كل من الوزارات المسؤولة ، لتلافي الامر وتدارك النقص في جهازنا الثقافي وتنظيمه على اسس يصلح معها ان يكون اساساً في استكمال اجهزتنا السياسية .

واننا ندعو من بيدهم امر البناء الثقافي ، الى انشاء معهد رسمي او منظمة يناط بها تنسيق النتاج الثقافي ووسائل التعريف به على كيفية تتمكن منها الجماهير من استساغته ليعود علينا بالمبتكر من الجديد يكون خير اداة للامة يدفع الضيم عنها ويعدها للحياة . وسنتولى في مقال آت ، بيان الاسس التي يجب ان يقوم عليها هذا المعهد الذي ندعو بحرارة الى انشائه .

يوسف اسعد داغر

* لا تذهب بعيداً ايها القارىء فوزارة المعارف اللبنانية لم تسمع بعد بمجلة الاديب .

واهاً واهاً! اين هي الشفة التي علمتني
كيف اقبّل في خميرة الشفاه خميرة المحبة
... والعين التي علمتني كيف أكلأ
حبةَ العين في حباب العيون
... والجبهة العالية التي كانت تقف
كل صباح على شرفة بيتنا كما يقف
... فم الميزاب ، جارنا ، كل صباح ،
في شرفة الشمس العالية
... والصوت العجيب الذي علمني في
الهتاف رفعة الدعاء ، وفي الهينمة رعشة
المناغاة ، وفي الهمسة رنّة الفتنة ...

ورأس انسان كبير ، على صدر امرأة
كبيرة ، وفمه الحائر على خدها المطمئن ،
وراحتها المشرعة تمسح في التأمل والحنو
عرق جبينه ، وقدماه كجناحيه ، مرتفعتان
مع القدر في درب الجوزاء .

اين هو الصدر الذي علمني كيف ان
العظام القاسية ، في فيء المحبة ، ألين من فيء الجنة !
اماه ، لم يترك لي الموت في حديقة
البيت حدقة عين ...

ناديت الدالية المعرشة على سُلم البيت
فلم تصفق لي مع الشوق ، اوراقها الخضراء
وسألت العتبة البيضاء التي كنت تدلكينها
صباح مساء بالزيت ، والريحان ، وتهد التراب ،
وسويداء القلب فلم تهتف هتافاً ،

وسألت الجرة الحمراء عن تلك الكتف
القوية التي كنت تتحمّلينها الينا من عيون القرية
الباردة ، فغصت الجرة الحمراء يلفح فمها
لفحان الغربة وبكى الابريق في الزاوية
لقد انقطع عن فمه وفمها خيطُ الماء
فانقطع عن فمنا خيط الارتواء

واحملك بعيني في لوحين من الخشب ،
ثم امضي بك مع الناس الى زاوية المقبرة تحت
السنديانة ، في قلب القرية عند الكنيسة الكبيرة
وافتح باهدابي اليابسة باب القبر على هفات
المباخر وتراتيل النعاة ،
... واهاً لقساوة المعول الذي تحرك
والحفار الذي نشط والحجر الذي لان ،
والكاهن ، هذا الكاهن المسرع الذي
راح يوجز الكتاب وكانه مع الموت على
موعد آخر في بيت آخر ...
وألف آه وآه لبحة الجرس المتثائب في
تمحي الابتهال وتلفت القدر .
ويتطلع الموت من شدقي القبر ! الجاثم
... اماه ... اماه ...
واحاول ان اضم فلا ارى بين الساعدين
المرتجفين غير الشبح الهائم الاسود الذي كنت
تضربين قمة رأسه بالعصا الطويلة في ليالي

كوثر التراب

الى امي التي احبت ان تموت مع النهار
في زاوية القرية تحت السنديانة

☆

كانون الداجية . واشعر اول ما اشعر اني
اصبحت مقيماً في الارض ، وان في تلك
الزاوية الساكتة البارزة بترابها الجديد عيناً
حدقت فيها ، ... في تلك الاصابع المسبلة ،
.. في تلك الخصائل البيضاء المسرحة بايدي
الغرباء ... في ذلك القميص النقي الذي
قطفته اختي من ضلوع قصاننا الجديدة . !
... فسألت نفسي والنهار يلهث من
التعب أيّنا الذي مدّ رأسه في شق القبر . .
اماه ! اماه !

اية زيتونة تسكب لنا الزيت
في قنديلنا الساهر ؟ من اية كتف اشرب
الماء البارد في قريتنا اليابسة ؟ من اية دالية
اقطف العناقيد في دارتنا الضيقة ؟
من يخبيء لي حبة الزبيب الطيبة في عبه ،
والتفاحة الملونة العطرة في كمه ، الامل في
جفنه ، العمر في فمه ، الرضا في مفارق
جبهته والربيع في اصابع كفه ، والضوء في
طيات ردائه ، والقبل في جيبه ، ... في
صوته ، ... في خطوته ... والسماء في صدره
في سماء صدره ، والله ، وراء البيت في الظل
تحت قبة الجرس عند حنية الكنيسة .

وآماه ، اصبحت في الطريق غريباً كهذه
الطيور الغريبة التي تضرب مناقيرها
واجنحتها على قضبان الحديد حتى تدمى
فتتكسر على نواتىء القضبان

لم تعد لاورشليم القديمة ، في نفسي عظمة
سقطت قبة الهيكل الزرقاء ، ودبت
قدسية الحياة ، من اغوار الاضالع الى اغوار
المقابر في وحشة الارض اليابسة ، وتقدس
عندي في الدعاء كوثر التراب ... في حباته
حبات دمك ، في عروقه خيوط عروقك ..

امس حنيت جبهتي حتى الارض ،
امرغها في الحصى والرمال ... سأسير حتى
الموت ، وظهري لوجه النجوم السادرة .
اماه !!

أنى اقرأ ، وقد غمضت في كتابي
معاني الحروف ...

اعطني ، اختاه ، هذا الابريق الفارغ
اضرب به وجه الايمان ...

لتسقط اورشليم الناس القديمة ، مدينة
الاشباح والاوهام ، والآلهة .

في الزاوية الضيقة تحت السنديانة ،
في مقبرة القرية عند بيتنا ارتفعت في رنين
الموت والاجراس جدران الهيكل الجديد .
اسقني ، اختاه ، اكاد اموت في باب
الهيكل من الشوق والعطش .

الياس خليل زخريا

مجتهدات زهدن في الدنيا ليسعدن في الآخرة

بقلم الآنسة انعام الصغير
ليسانسيه في الفلسفة من جامعة فؤاد الاول

☆

— « إلهي ! اذا كنت اعبدك رهبة من النار فاحرقني بنار جهنم ، واذا كنت اعبدك رغبة في الجنة فاحرمنيها ، واما اذا كنت اعبدك من اجل محبتك فلا تحرمني يا الهي من جمالك الازلي » .

هكذا ناجت رابعة العدوية ربها بهذا الحب السامي المجرد عن الهوى وهو حب الله لذاته وهكذا عبرت ام الخير — اي رابعة — عن شعور زميلاتها المتصوفات الاخريات اللواتي تبعن الطريق نفسها المؤدية الى افناء حياتهن في العبادة والتقوى واصلاح النفس وكبح جماح الشهوات ، واكثرنا يعرف عن رابعة العدوية لذلك لن نتحدث عنها هنا بل نتركها الى غيرها من اللواتي اشتهرن مثلها . فكان لها سمية تدعى معاذة العدوية عاصرتها وكانت من بين رفيقاتها . وهي ابنة عبدالله العدوي ولقبت « ام الصهباء » وهي احدى متصوفات البصرة . ويقول جامي عنها بانها من كثرة التواضع ما رفعت رأسها ولا وجهها الى السماء مدة اربعين سنة كاملة . ولم تأكل اي شيء في النهار كما انها لم تنم في الليل . فقال لها اصدقاؤها مرة : « الا تؤذين نفسك بفعلك هذا ؟ » فاجابتهم : « لا اذية تأتيني فأني حولت نوم الليل الى النهار وطعام النهار الى الليل[1] » وذكر الغزالي عنها قائلا : « كانت معاذة العدوية اذا جاء النهار تقول : هذا يومي الذي اموت فيه فما تطعم حتى تمسي فاذا جاء الليل تقول هذه الليلة التي اموت فيها فتصلي حتى تصبح . وقال ابو سليمان الداراني : بتّ ليلة عند رابعة فقامت الى محراب لها وقمت انا الى ناحية من البيت فلم تزل قائمة الى السحر ، فلما كان السحر قلت : ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة قالت : جزاؤه ان تصوم له غداً[2] » .

(١) في الفهرست صفحة ٧١٨ من كتاب جامي : « نفحات الانس » نقلاً عن :
M. Smith : «Rabi'a, the mystic...» Cambridge 1928 p. 143.
(٢) الغزالي : « احياء علوم الدين » مصر سنة ١٣٤٦ هـ . الجزء الرابع صفحة ٣٥٦ .

وكانت معاذة تحاول كل الوسائل التي تمنعها من النوم حتى انها ما كانت تلبس الا الثياب الخفيفة ليحول البرد بينها وبين النوم . وقصت خادمتها حادثة عنها فقالت : ان معاذة كانت تمضي الليل في الصلاة واذا غالبها النوم كانت تقوم فتمشي في الدار وتقول : « يا نفس ، النوم امامك ، اذا مت ما اطول نومك في القبر ! » وهكذا تبقى على هذه الحال الى الصبح . وقيل ان عدد الركعات التي كانت تصليها معاذة كل يوم وليل ست مائة ركعة وتقول : « اعجب من العين التي تنام ، عالمة طول النوم في القبر . » .

ولم تبق معاذة عزباء بل تزوجت وانجبت ولداً ذهب مع والده في حملة عسكرية . وفي يوم قال الاب لابنه : « يا بني ، اذهب وحارب لكي اسر منك . » فرمى الولد بنفسه على الاعداء الكافرين وقاتل حتى قتل ثم تقدم الوالد وفعل فعله . وحين تجمعت النساء وذهبن الى الارملة الثكلى — معاذة — ليعزينها قالت لهن : « اني ارحب بكن اذا كنتن قد اتيتن لتهنئتي ولكن اذا انتن قادمات لغاية اخرى فيمكنكن العودة من حيث جئتن[1] . » . ومن هنا نستخلص ان معاذة كانت من نوع النساء العربيات الابيات اللواتي قدمن اعز ما عندهن ، وهم فلذة اكبادهن ، فداء للوطن ودفاعاً عن الدين والشرف .

ويذكر الشعراني[2] بان معاذة — بعد موت زوجها — كانت تحاول ان تميت نفسها تدريجياً فما كانت تضع رأسها على فراش الى يوم وفاتها .

وتمثل هذه المتصوفة الزاهدة في الدنيا والمنصرفة الى العبادة كل

(١) هذا معنى ما ذكر في ورقة ٢٤ من المخطوطة : « سير السالكات المؤمنات الخيرات » لتقي الدين الحصري (المكتبة الوطنية في باريس رقم ٢٠٢٤)
(٢) الشعراني : « الطبقات الكبرى » صفحة ٨٦

الانصراف ، تمثل مدرسة الحسن البصري احسن تمثيل وخاصة فيما يتعلق بالزهد اكثر منه بالتصوف ولاعتقادها بان اماتة الجسد في هذا العالم يقدم اكبر قربان واوفى الآمال في الخلاص بالحياة الثانية . وشبه ايمانها هذا ايمان الحسن البصري تماماً - ذاك الايمان الحزين الذي يعيش صاحبه دائماً تحت وطأة شبح الخوف من نزول الغضب الاكبر على العباد — هذا رغم قرابتها برابعة ومعرفتها الطريق التي كانت تسلكها هذه الاخيرة سعياً وراء التقرب من الخالق الاعظم بواسطة الحب والتفاني في خدمة المحبوب .

وكانت ام حرام اول متصوفة في الاسلام ولا يزال قبرها قرب لارناكا في قبرس . وكانت لها شخصية قوية اهتم بها أكثر مؤرخي عصرها من العرب الاوائل . وهي بنت ملحان الانصارية ومن اقرباء النبي . اما زوجها فكان عبادة بن الصامت وهناك اختلاف في اسمها ، ويقول البعض ان اسمها الحقيقي غير معروف . ولها ترجمة تامة في مخطوطة تركية يعود تاريخها الى ما يقارب سنة ١٨٠٠ م . وهي للشيخ ابرهيم بن مصطفى الذي جمع معلوماته من المصادر الاولية القريبة من عهدها .

اما صفات هذه السيدة الكريمة فيكفيها فخراً ان يكون النبي محمد قد سر من قلبها النبيل فقال لها : « انت من الاوائل » — ملمحاً هنا الى سفرها لقبرس في الحرب المقدسة وموتها هناك حيث اعطيت لقب « الشهيدة » وهو اثمن تاج يتوج به انسان بعد موته . وذكر صاحب كتاب « النجوم الزاهرة . . » فقال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يغشاها (اي ام حرام) ويقيل عندها وبشرها بالشهادة [1] » . كما انه يذكر عن هذه السيدة انها مظهر من مظاهر العجائب والقدسية ومصدر دائم او نبع متدفق للبراءة والطهر في الحياة .

وقد رأت ام حرام النبي في نومها وكانت بين افراد الجيش الاول الغازي قبرس كما ذكر البلاذري فقال : « غزا معاوية بن ابي سفيان في البحر غزوة قبرس الاولى ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها وكان معاوية استأذن عمر في غزو البحر فلم يأذن له ، فلما ولي عثمان بن عفان كتب اليه يستأذنه في غزوة قبرس ويعلمه قربها وسهولة الامر فيها فكتب اليه : ان قد شهدت ما ردعليك عمر رحمه الله حين استأمرته في غزو البحر . فلما دخلت سنة ٢٧ كتب اليه يهون عليه ركوب البحر الى قبرس فكتب اليه عثمان :

(١) تغري بردى : « النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة » مصر سنة ١٩٢٩ الجزء الاول صفحة ٨٦ — ٨٥ .

«فان ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذوناً لك والا فلا . » فركب البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة وحمل امرأته فاختة بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف بن قصي وحمل عبادة بن الصامت امرأته ام حرام بنت ملحان الانصارية وذلك في سنة ٢٨ بعد انحسار الشتاء [1] » . وذكر محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد السلام بن موسى عن ابيه قال : « لما غزيت قبرس الغزوة الاولى ركبت ام حرام بنت ملحان مع زوجها عبادة بن الصامت فلما انتهوا الى قبرس خرجت من المركب وقدمت اليها دابة لتركبها فعثرت بها فقتلتها فقبرها بقبرس يدعى قبر المرأة الصالحة [2] . وقد شيد هذا القبر في نفس المكان الذي وقعت فيه .

وككل القديسات ينسب البعض الى ام حرام كما ينسبون الى غيرها ، اعمالاً خارقة عجيبة منها الرواية التالية وسنوردها هنا على علاتها : تقول هذه الرواية انه بينما كانت ام حرام في طريقها من القدس الى الرملة — وهي ذاهبة الى قبرس — نزلت ضيفة في بيت احد الرهبان المسيحيين فرأت عنده ثلاثة احجار كبيرة كأنها اعمدة ضخمة ، اعجبتها ولكي تظهر قدسيتها ومنزلتها طلبت من الراهب ان يبيعها الاحجار ولكنه كان مقتنعاً بانه يستحيل نقلها وعلى كل حال قدمها اليها كهدية وطلبت منه ان يحفظها عنده لحين الطلب . وتذهب الرواية الى القول بانه يوم وفاتها تحركت الحجارة من نفسها وعامت سائحة على وجه البحر الى ان اتت الى ذاك المكان حيث وقعت ودفنت ، ويقال إن هذه الحجارة انتصبت من نفسها فقامت واحدة عند قدمها واخرى عند رأسها ثم تعلقت الثالثة في الهواء بقوة سحرية . ويقال ان حراس القبر الى الآن يرون الزائرين يفدون لزيارته وينذر البعض النذور العديدة لها كما يعلقون الخرق عليه والتمائم حسب النيات ، ومهما يكن من امر الشك في هذه الرواية وبعدها عن الحقيقة والواقع ، فانها ان دلت على شيء تدل على مكانة تلك المرأة عند الناس لدرجة انهم نسبوا اليها كل شيء بعيد عن الواقع والتصديق .

ومثل هذه المتصوفة عدد غير قليل اشتهرن بورعهن وبانصرافهن عن الحياة للعبادة والاقتصار عليها مترهدات في الحياة ، قانعات بالقليل من بساطة العيش ، ناذرات انفسهن لخدمة الخالق والتقرب منه للاتحاد به والحلول فيه واحسن مثل لهذا تلك التي ناجت ربها

(١) البلاذري : « فتوح البلدان » صفحة ١٥٩ طبعة مصر سنة ١٣١٩هـ .
(٢) » » » صفحة ١٥٩ — ١٦٠ طبعة مصر سنة ١٣١٩هـ .

صلاة

●

ان هذه البركة الهادئة قد عات جوانبها حشائش صفراء

ركودها في صدري ، قذاها في عيني ، نتانتها في انفي

خرساء كأنها العدم ، تضيق وتعلو وكأنها مستنقع

ربي : أهذه حياة يحياها اديب !

***

ربي : اعرف أني لست في الجنة

لا مال ولا جاه ولا صفاء

ولكنني ما اردت جهنم دخاناً وظلمة .

ما اردتها بركة يضيق بها مجذافي

ربي : اردتها شاذوفاً يتفجر من شماريخ الجبل

ولا بأس اذا تحطم قاربي وتناثرت اطرافه بعيداً .. بعيداً

حسبي لوحة من اخشابه يدفعها الشاذوف في عباب هذا البحر .

***

انني عرفت المرأة ولم اعرف الحب

وعرفت الحب فلم اجد المرأة

ربي : اريد .. اريد امرأة غامضة مخيفة تدفعني في جنون

الى صراع هذا الشاذوف

تلك ربي تلك التي صنعتها مثلي ، في ساعة من ضجر !

احمد عوبدات

بهذه الكلمات اذا جنها الليل تقول في دعائها : « يا واحدي ! تمنعني بالليل التلاوة ، ثم تقطعني عنك بك في ضياء النهار . الهي ! وددت ان النهار ليل حتى اتمتع بقربك[1] . » وقال سلام الاسود عنها كذلك : طلعت عليها الشمس يوماً فآذتها فقالت :

« ان كنت تعلم انني بك واله فاصرف سموم الشمس عني سيدي »

قال فغمت السماء في الوقت .

وذكر سلام ايضاً قائلاً : « صامت حيونة حتى اسودت ، فموتبت في ذلك فرفعت طرفها الى السماء وقالت : قد لامني خلقك في خدمتك فوعزتك وجلالك ! لاخدمنك حتى لا يبقى لي عصب ولا قصب . ثم انشأت تقول :

يا ذا الذي وعد الرضا لحبيبه انت الذي ما ان سواك اريد

وزارت رابعة العدوية يوماً حيونة فلما كان جوف الليل حمل النوم على رابعة فقامت اليها حيونة فركلتها برجلها وهي تقول : « قومي قد جاء عرس المهتدين . يا من زين عرائس الليل بنور التهجد[1] . »

وذكر سلام ايضاً عنها فقال : « سمعت حيونة تقول : من احب الله أنس ، ومن انس طرب . ومن طرب اشتاق . ومن اشتاق وله ، ومن وله خدم . ومن خدم وصل . ومن وصل اتصل . ومن اتصل عرف . ومن عرف قرب . ومن قرب لم يرقد . وتسودت عليه بوارق الاحزان . وكانت تقول : اللهم هيّء لي سكون قلبي تعقد الثقة بك ، واجعل جميع خواطري واثقة برضاك . ولا تجعل حظي الحرمان منك . يا امل الآملين »[2] .

وهكذا نرى ان الدور الذي لعبته النساء في الحياة الصوفية الدينية لا يقل عن الذي لعبه الرجل وهذا برهان قاطع على ان امور الحياة الدنيوية لا تشغل كل النساء . كما يتهم الرجل المرأة على الاجمال وهذه الاشياء لا تذكر تعميماً جازماً اذ لا تتوقف العاطفة ، مهما كان نوعها ، على الجنس بل على الفرد وها هو الامام الغزالي ، حجة الاسلام ، يذكر في كتابه « احياء علوم الدين » : « فعليك ان كنت من المرابطين المراقبين لنفسك ان تطالع احوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك ، واياك ان تنظر الى اهل عصرك فانك ان تطع اكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله[3] . » وفي غير هذا المكان قال : « .. فان حدثتك نفسك بان هؤلاء رجال اقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع احوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس لا تستنكفي ان تكوني اقل من امرأة . فأخسس برجل يقصر عن امرأة في امر دينها ودنياها[4] » .

انعام الصغير

(١) النيسابوري : « عقلاء المجانين » طبعة مصر سنة ١٩٢٤ صفحة ١٢٧ – ١٢٩ .

(١) و(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) الغزالي : « احياء علوم الدين » مصر سنة ١٣٤٦ هـ . الجزء الرابع صفحة ٣٥٣ . (٤) الغزالي : « احياء علوم الدين » مصر سنة ١٣٤٦ هـ . الجزء الرابع صفحة ٣٥٥ .

الدن

للويجي بيرنديللو   ترجمها عن الايطالية : مصطفى آل عيال
ليسانسيه في الاداب

☆

مجمع في آخر النهار ثلاثة من الفلاحين الذين يشتغلون بقطف الزيتون وخبطه وهم يحملون السلالم والعصي والقفف.

لقد لاقوا من يومهم نصباً ، وما كادوا يبلغون منزل راحتهم حتى خروا الى الارض كأنهم خشب مسندة . فالدن الكبير الجديد وجدوه مشقوقاً الى قسمين على ان قطعة كبيرة من بطنه المنتفخ قد انفصلت كما لو قدت بسكين حادة من اعلاه الى اسفله .

— اني اموت . اموت . اموت . ! صرخ بصوت كأنه آت من القبور احد اولئك الثلاثة وهو يقرع صدره بيده .

— ومن فعل هذا ؟ سأل الاخر .

وصاح الثالث : ثكلتني امي . من سيخبر « دون للو » . ومن يقوى على الوقوف في وجهه . اشهد الله بان الدن جديد . واسفاه عليه .

فاشار الاول بالانسحاب في صمت واضعين عند الحائط الخارجي جميع ادواتهم . ولكن الثاني عارضه بقوة وقال :

— يا المجانين ! دون للو لا ينخدع ، بوسعه ان يعتقد باننا نحن الذين كسرناه . لنلزم مكاننا جميعاً . ثم خرج من الدار وجعل يديه كالقمقم امام فمه وصاح : دون للو . يا دون للو .

كان دون للو في اسفل الوادي يراقب مفرغي السماد الكيمي وكان الزبد يعلو شدقيه وهو غضبان كعادته ، يرفع يديه ويضرب بها قبعته البيضاء فيغيب رأسه فيها حتى الاذنين وهكذا دواليك حتى تحجب له جبينه وعينيه وتغطي له رقبته ويصبح من الصعب نزعها الا بعد الجهد الجهيد .

ان نيران الاصيل الاخيرة بدأت بالخمود والتلاشي عن صفحة المساء .

وزحف السكون فوق تلك البراري وامتدت الظلال الى ما لا نهاية له وهب النسيم البليل بتؤدة فارتاحت اليه النفوس وتراخت الاعضاء نشوى . اما دون للو فما كان يزداد الا غضباً على غضب وتلويحاً باليدين كأن مساً من الخبل اعتراه فجأة .

— يا دون للو ! دون للو . دون للا .. كان صدى ذلك الصوت ترده الصخور والوديان .

ما كاد يصعد ويرى تلك الكارثة التي حلت بدنه حتى جن جنونه ، وبادر اولئك الثلاثة المساكين وامسك باحدهم من رقبته وشد عليها الخناق بكلتا يديه ودفع به الى الجدار وصرخ في وجهه وشظايا الزبد تتطاير من فيه .

— ايها الاسافل الاوباش .. ستدفعون لي ثمنه .

ولما اسرع اليه رفيقا الفلاح وامسكا بتلابيبه وقد بدت على سحنتهما المتقاصة — ذات اللون الترابي من كثرة ما لوحتهما الشمس وعصفت بهما الرياح — تلك الوحشية التي تتفوق في الانسان عند الحيوان ، تركه وجعل من نفسه هدفاً لعاصفته الهوجاء واقبل على قبعته يغوز رأسه فيها ويصفع وجنتيه بما اوتيه من قوة ويعتمد بكل جسده على رجله الاولى ثم على الثانية ويعول وينبح لا كعويل الذئاب او نباح الكلاب .

— وادناه ! وامصيبتاه ! واخسارتاه ! دن جديد لم يمض عليه بضعة ايام مذ اشتريته ، واحر قلباه !

كان يريد ان يعرف من كسره ، هل انكسر من تلقاء نفسه . كلا ! لا بد من ان انساناً كسره نكاية به او حسداً او لسفالة في طبعه . ولكن متى حدث ذلك وكيف ؟ ليس ثمة من اشارة تدل



على العنف . أيكون وصل مكسوراً من معمله ؟ هـذا محال ! كان له رنين حلو لا كرنين الاجراس .

ولما رأى الفلاحون بان عاصفة غضبه الاولى قد تلاشت شرعوا يحضونه على السكينة والصبر . فاصلاح الدن ممكن وجبر كسره ليس من الاشياء المستعصية ، قطعة واحدة فقط هي المفصولة منه . واي جرّار ماهر يرده جديداً كما كان تماماً . ان « العم ديا » الذي اكتشف معجوناً يأتي بالمعجزات بوسعه ان يقوم باصلاح الدن . انه يضم الى صدره هذا المعجون العجيب المدهش ويضن بسر تحضيره حتى على جميع القديسين مجتمعين . معجون لا تأثير للمطرقة عليه اذا جفّ ، فاذا اراد دون للو ففي الغد وقبل طلوع الفجر يكون امامه « العم ديا » وباسرع من طرفة عين يرد الدن احسن مما كان .

رفض دون للو في بادىء الامر نصائح الفلاحين وتوسلاتهم : « عبثاً نحـاول اصلاحه . لقد انتهى كل شيء . لا دواء ولا معجون يجدي » وبعد اللتيا واللتي جرب بان يقنع نفسه بنفسه فقال : « ليكن ! آتوني بالعم ديا » . ومع الفجر حضر هذا الى البلد يحمل على ظهره قفة تحوي ادواته .

كان شيخاً هماً مفرطح الرجلين الواحـدة تضرب الى الشمال والاخرى الى اليمين فيتهادى وهو يمشي وكأنه مركب من عدة عقد اشبه بتلك العقد المنتشرة على جذع زيتونة نخرة قديمة جداً . لقد اعتصم بالصمت فلا ينتزع منه اقل كلمة الا بكلابة صلبة . ان صمته يدل على الخرس وحزنه الظاهر له اصوله في نفسه وجسمه المشوه . انه يشعر بمركب النقص وما كان ليثق بأن الناس في وسعهم ان يفهموه ويقدروه بما يستحقه فضله كمخترع وان لم يسجل اختراعه بعد . كان عليه ايضاً ان يتلدد حتى لا يسرق له احد سر تحضير ذاك المعجون الذي دونه معجزات الانبياء ؟

— أرني هذا المعجون ! قـال دون للو وهو يلهب بنظراته « العم ديا » من رأسه الى اخمصه .

فرفض هذا باشارة من رأسه وقد انتفخ صدره عظمة وقال :

— ستراه عند العمل . — سيعود الدن كما كان ؟

وضع « العم ديا » قفته على الارض واخرج منها منديلاً كبيراً مهترئاً باهت اللون وقد لفه لفاً دقيقاً . بدأ ينشره رويداً رويداً رويداً امام الابصار النهمة وفضول النظارة الجشع . واخيراً اخرج نظارتين يرجع عهدهما الى عاد وثمود مربوطتين الى بعضها بالخيوط . ثم اخرج علبة علاها الصدأ مكسورة هي ايضاً ثم تنهد طويلاً وضحك النظارة كثيراً . لم يأبه لضحكهم ونظف اصابعه قبل ان يتناول النظارتين ووضعهما على انفه وبدأ يفحص الدن فحص المجد للامور الخطيرة وقد أخرج الى العراء فوق البيدر ثم نطق بكلام كأنه الحكم المبهم : — سيعود كما كان .

— بالمعجون وحده فقط لا اؤمن . يجب ان تضع ايضـاً مفصلات من حديد .

— اذاً استودعكم الله . قال ذلك وهو يقذف بالقفة على كتفه ، ولكن دون للو امسكه من ذراعه :

— الى اين؟ أهكذا تعالج المريض المحتضر؟ ما هذه العجرفة ؟ هل تظنك احد ورثة الاسكندر ذي القرنين . ويل لك من شقي تعيس ايها الاحمق الفسل والدميم الخلقة لست غير عبد قن واقل من حمار وعليك ان تلين لاوامري . اريد ان اضع الزيت في الدن وسيتسرب الزيت من الشقوق حين لا تمسكه بمفصلات من حديد . أفهمت يا أبله البلهاء . هل بوسع احد من الانس اصلاح شق طوله نصف كيلومتر بالمعجون فقط . اريد مفصلات من حديد . معجونة مفصلات اني آمرك بذلك . ثم تركه وذهب ليعتني بامر فلاحيه .

***

شرع « العم ديا » بعمله منتفخ الاوداج من الحنق والغضب المكبوت . وكان يزداد حنقه وغضبه كلما ثقب ثقباً جديداً في الدن وفي القطعة المفصولة عنه وما كاد ينتهي من عمليته حتى قذف بالمثقب في قفته ووضع القطعة المفصولة في مكانها ليتحقق من ان الثقوب على بعد متواز وانها متقابلة في الطرفين . ثم قطع بكماشته خيوطاً من حديد حسب عدد المفصلات ونادى احد الفلاحين الذين كانوا يخبطون الزيتون ليساعده .

— تشجع يا « عم ديا » ، قال له ذاك لمـا رأى سحنته لا كسحنة البشر .

رفع « العم ديـا » يده بحركة عصبية تنم عن حقده الشديد وفتح علبة التنك حيث المعجون ورفعه نحو السماء وهزه مراراً كما لو كان يريد ان يقدمه قربانـاً الى الله ما دام الناس لا يريدون ان يقروا له بفضائل هذا المعجون ، ووضع منه شيئاً فوق سبابته وبدأ يطلي به القطعة المنفصلة والصدوع حولها . ثم تناول الكماشة ومفصلات الحديد وقذف بنفسه الى داخل الدن من جانبه المتصدع .

— امن الداخل تريد العمل ؟ — سأله الفـلاح الذى حضر لمعاونته وكان ممسكاً بالقطعة المفصولة .

لم يجبه وباشارة من يده امره بأن يضع تلك القطعة في مكانها من الدن كما سبق وجربها منذ هنيهة وقبل ان يضع المفصلات قال

للفلاح بصوت يرتجف كأنه يريد ان يبكي :

— شد اليك . شد اليـك بكل قوتك وسترى اذ تنفصل القطعة ام لا . ثكلته امه كل من لا يريد ان يصدق . اضرب اضرب بجمع يدك واسمع رنينه الصافي مع اني موجود في داخله . اذهب الى سيدك الجميل واحمل له الخبر اليقين .

— من هو فوقك يحكمك يا عم ومن هو دونك يخضع لك . هذه حال الدنيا حاكم ومحكوم . قال الفلاح متنهداً من اعماق صدره . ثم اردف : — ضع المفصلات، عجل .

بقي العم ديـا اكثر من ساعة وهو يضع مفصلات الحديد ويثني لهـا رؤوسها بكماشته . كان العرق يتصبب منه كالسيل فيرسب في قعر الدن . كان يندب حظه العاثر وهو يشتغل وكان الفلاح يشجعه ويطيب خاطره .

— والآن ساعدني على الخروج ، قال اخيراً العم ديـا وهو يمسح عرقه بطرف كمه ويزيد ما تراكم منه على جبينه بسبابته .

ولكن .. ذاك الدن بقدر ما كان واسعاً من بطنه بقدر ما هو ضيق من عنقه . ان الفلاح كان يتكلم بوحي قلبه لما سأله : « أمن الداخل تريد العمل » ولكن العم ديا في ساعة غضبه لم يعره انتباهاً . والآن فقد حاول وجرب واعاد الكرة مراراً فلم يفلح في الخروج . اما الفلاح فبدلاً من ان يساعده كان يضحك ويقهقه ويتمايل ذات اليمين وذات الشمال . لقد سجن نفسه في الدن هذا الدن الذي اصلحه ورده احسن مما كان. . . . والآن لا سبيل الى الخروج منه . وليس هناك الا سبيل واحدة يجب كسر الدن ثانية وسيبقى معطوباً في هذه المرة الى الابد .

ان الضحك والقهقهات والصراخ جلبت دون للو . كان العم ديا من داخل الدن يتخبط كالهرة الوحشية الثائرة .

— اخرجوني ! يا الله . اريد ان اخرج . حالاً ساعدوني .

صعق دون للو في بادئ الامر ، ما كان يدري كيف يصدق .

— كيف . . . هناك في داخل الدن . . . أخاط نفسه بالقطعة .

اقترب من الدن وخاطب ذلك الشيخ التعيس :

— أتستغيث . وكيف اغيثك ايها الشيخ الاحمق ، كيف فعلت ؟ اما كان عليك ان تأخذ الاحتياطات اللازمة اولاً ، هيه . ناولني ذراعك هكذا . ثم رأسك . هيا . لا ، لا ، مهلاً . ماذا ؟ انزل ! انتظر ! هكذا محـال . انزل ! انزل ! كيف عملت ؟ والآن ما العمل بالدن . صه ، اسكت لا تتحرك . اياكم والضجة ايها . . التفت الى من حوله وصرخ بوجوههم . فكأنهم الذين سيفقدون سكينتهم لا هو .

— ان الدخان يتصاعد من رأسي احس به يتبخر . السكينة السكينة ! هذا حادث جديد . . آتوني بالبغلة .

ثم قرع الدن مراراً بمفاصل اصابعه . حقاً كان رنينه كرنين الجرس او احسن .

— لا شك في أنه عمل جميل . لقد عاد كما كان جديداً . . رويدك . انتظر — قال للسجين .

— اذهب انت وشد لي البغلة ، امر احد الفلاحين . ثم اردف يخاطب نفسه وهو يحك جبينه بكلتا يديه وباصابعه العشرة .

— ارأيتم ماذا حدث لي؟ ما هذا دن، هذا من عمل الشيطان قف مكانك ! قف لا تتحرك . — ثم ركض وسند الدن حيث العم ديا وقد نفد صبره وبدأ يتخبط كما يتخبط الوحش في الفخ .

— حادث جديد غريب يا عزيزي ، والمحامي وحده بوسعه ان يحله ، اني ذاهب وسأعود حالاً . صبراً ، ان ذلك في مصلحتك وفي هذا الاثناء ، . مهلاً ، السكينة السكينة . اني اسعى وراء مصلحتي انا ايضاً . وقبل كل شيء وكي انقذ حقوقي اقوم او لا بواجبي . دونك اني ادفع الك اجرك . ادفع الك يومـك كله . ثلاث ليرات . هل تكفيك .

— لا اريد شيئاً اريد ان اخرج فقط .

— ستخرج وقبل الخروج ادفع الك اجرك . دونك ثلاث ليرات .

واخرج ، من جيب سرواله المنتفخ ، النقود وقذفها في داخل الدن ، ثم سأله على عجل :

— هل تناولت طعام الافطار ؟ آتوني بالخبز والادم حالاً . الا تريده ؟ اذاً اقذف به الى الكلاب . حسبي باني قدمته لك .

ثم امتطى دابته وسار بها خبباً نحو المدينة . من رآه على تلك السرعة فقد ظنه بأنه ذاهب باختياره الى البيمارستان ليحجر على نفسه .

من حسن حظه انه وجد المحامي لا عمل له في تلك الساعة غير الضحك والاستغراق به لما شرح له دون للو ذلك الحادث .

— وماذا يضحك سعادتك ؟ اجل انه لاناقة الكم في الامر ولا جمل . اما انا فلي دن كبير جديد غالي الثمن .

ولم يأبه المحامي للاحظته وظل يضحك لا بل وطلب منه ايضاً ان يقص عليه الخبر مرة ثانية وثالثة ليزداد في الضحك . وكان يسأله : هل خاط ذلك الرجل نفسه بالدن . وهل دن للو يريد ان يحتفظ به في الدن كي لا يكسره ويخسره .

أيجب ان يكسر واخسره اذاً ؟ فاجابه المحامي :

— هل تعرف ماذا تسمى فعلتك في عرف القانون . تسمى الحجز على انسان .

— الحجز على انسان . . ومن حجزه ؟ أليس هو الذي حجز نفسه . فما حيلتي انا في الامر عندئذ شرح له المحامي بانه امام حادثين : من ناحية عليه ان يطلق حالاً سراح اسيره حتى لا يتهم بالحجز على انسان . ومن الناحية الاخرى فان مصلح الدنان مسؤول عن العطل والضرر اللذين سببهما اما لبلاهته او لعدم كفايته في مهنته .

— معنى ذلك ان عليه ان يدفع لي ثمن الدن . اليس كذلك ؟ — سأله دون للو متنفساً الصعداء .

— على رسلك . لا كما لو كان جديداً .

— ولماذا ؟ — لانه كان قبلاً مكسوراً ، اما تفهم .

— كلا يا سيدي فانه الان سليم بل أحسن من سليم . هو نفسه يعترف بذلك . واذا عدت الآن وكسرته فلن استطيع تصليحه . وذلك معناه خسارة الدن خسارة ابدية يا سعادة المحامي .

وعده هذا بان يسوي الامر على احسن ما يرام اعني بانه سيحمل العم ديما على دفع ثمن الدن معتبراً حالته الحاضرة . ثم نصحه وقال :

— اجعله هو نفسه يقدر ثمنه . — دعني اقبل يديك .

***

ما كاد يصل حتى وجد الفلاحين كلهم محدقين بالدن يضحكون ويمرحون كأنهم في عيد . حتى كلب الحراسة شاركهم افراحهم بقفزاته ونباحه وبصبصات ذنبه . لقد نزلت السكينة على العم ديما ليس فقط بل وصار يجد لذة في التفكير بحالته هذه العجيبة الغريبة . ومع انه كان يضحك فقد كان يشوب ذلك مسحة من الحزن .

فرّق دون للو الجمع عن الدن واقترب منه واشرأب بعنقه وتطلع الى داخله . — اراك مسروراً حيث انت .

— مسرور جداً . انه مكان بارد يقيني هاجرة الظهيرة . اني افضله على بيتي . — تشرفنا . على كل اني اعلمك بان هذا الدن اشتريته بواحد وعشرين ليرة جديدة . كم تعتقد بانه يساوي الآن .

— وهل انا رهن التخمين ؟ سأله العم ديما بسذاجة كلية .

ضحك الفلاحون .

— الزموا الصمت ! دونك هذين الامرين : إما ان يكون المعجون مفعول ناجع او لا . فاذا كان الاول فمعناه انك دجال . واذا كان صحيح المفعول فان للدن كما هو الآن قيمته الاصلية . فكم يكون ذلك . قدّر أنت . فكر العم ديما ملياً ثم قال :

— دونك الجواب . لو تركتني جنابك اصلحه بالمعجون وحده كما كانت رغبتي فاولاً وقبل كل شيء . ما كنت موجوداً هاهنا في داخل الدن وكان يمكن ان يقدر بالثمن ذاته تقريباً الذى اشتريته به . اما الآن وقد شوهته هذه المفصلات الحديدية التي وضعتها انا من الداخل مرغماً على امرى فاي ثمن يمكن ان نحدد له . ثلث ثمنه الاصلي . أليس كذلك ؟

— الثلث ؟ اعني اربع عشرة ليرة . — وربما اقل من ذلك .

— اتفقنا اذاً . اقسم لي بشرفك انك لا ترجع بكلامك . اعطني اربع عشرة ليرة .

— ماذا ، ماذا اعطيك ؟ سأله العم ديما كأنه لم يسمع شيئاً .

— اني اكسر الدن لاخرجك وانت ستدفع لي ثمنه حسب التخمين الذي قدرته انت الآن هكذا يقول المحامي وهو رجل قانوني .

— انا ادفع اربع عشرة ليرة . هاها . . جنابك لا شك مازح انا لا افضل مسكناً على مسكني هذا حتى ولا قصور الف ليلة وليلة . ثم اخرج من جيبه وبجهد غليوناً فحشاه تبغاً واشعله واستعمل فوهة الدن كالمدخنة ليخرج الدخان منها .

لقد اعترى دون للو شبه بله ، هـذا الامر جديد لم يكن بالحسبان ، ان العم ديما يرفض الخروج من الدن . وما تنبأ هو ولا المحامي بهذا التغيير في الموقف . والآن كيف الافلات من هذا المأزق ؟ كاد يأمر بالبغلة ثانية ليعود الى المحامي . ولكنه فكر وقدر في اللحظة الاخيرة . لقد امسى المساء وهجمت جيوش الظلام .

— يا للوقاحة . انك تريد السكن في الدن الذي هو ملكي ليشهد الحاضرين على ما قال . انه رفض الخروج كي لا يدفع الثمن . وانا مستعد بان اكسره . ولكن اما وقد فضل الاقامة فيه فاني سأرفعه غداً امام القضاء مدعياً اولاً اغتصابه ملكيتي وثانياً الحيلولة بيني وبين الدن واستعمالي له في الوجه الذي اريده .

وقبل ان يجيبه العم ديما وبكل هدوء دفع من فوهة الدن بالدفعة الثانية من الدخان .

— كلا يا سيدي انا لا اريد ان امنعك من كل ما ذكرت . وهل تظن انه يلذ لي الاقامة في هذا الجحيم . اخرجني وانا سأذهب الى شأني ولن التفت ورائي . تريدني ان ادفع لك ! . هاهاها يا للسخرية ولو في المنام يا صاحب المقام الرفيع — كاد دون للو من شدة غضبه يرفع رجله ويرفس ذلك الدن ليحطمه . ولكنه بدلاً من ان يفعل احتواه بين ذراعيه واخذ يهزه بحركة عصبية .

— ما رأيك في هذا المعجون ؟ سأله العم ديما .

— اف لك ايها الاحمق ! من منا ارتكب الحماقة الكبرى

ظلم الانسان للانسان

بقلم السيدة وداد سكاكيني

يظلم الناس بعضهم منذ كانوا ... طال ظلم الانسان للانسان

☆

هذا بيت لولي الدين يكن ردده في محنة من المحن، وكان ولي الدين من الشعراء الذين عاشوا على بؤس ولم يتعودوا، لقد شهد في عصره مظالم لا يحصى لها عد ايام السلطان الاحمر؛ ولقي العنت والمنكر. فيا ليلة روّع فيها وأوذي، وأخيفت زوجته الحامل وامه العجوز، ومضى به ظالموه مصفداً في قطع من الليل الى منفاه بسيواس، فلم يجد وسيلة لتنفيس كربه حين كان ينزل به الجند في بعض الطريق بخانات الاناضول الا ان يكتب شعراً على الجدران يشكو فيه ظلم الانسان. ومن قبل ولي الدين كان في تاريخ ادبنا العربي شعراء ادركهم العنت والاضطهاد؛ ففي العصر الاموي كتب يزيد بن المفرغ شعر الاحزان على جدر الحانات في طريق خراسان، شاكياً الى الله والعباد جور عباد بن زياد.

مهلاً ولي الدين، لقد كان ظلم الانسان للانسان قديماً أزلياً، وسيبقى أبدياً سرمدياً، قتل قابيل اخاه هابيل كما تقول الكتب المقدسة فكان اول ظالم غاشم حقت عليه بجريمته اول لعنة، فعرف البشر من ذلك الحين سبيل الغصب والعدوان، وارتفعت نحو الله شكوى المقهورين وظلامة المغدورين، وكان في نظام الحياة منذ كانت على الارض شطران للقوة والضعف، وانقسمت الخليقة الى معسكرين، معسكر للخير ومعسكر للشر، وقامت الحرب الانسانية بين الفريقين، تستجيش العدو وتتمرس بالفتك والتدمير وتزاحمت اهوال هذا الجند، واستفحلت خطوبة فملأ السهل والجبل ناره وحديده، وامتد الى الآفاق والاعماق بلاؤه وأذاه، وان لهذه الحرب الانسانية جيوشاً ولدت الجيوش التي نراها وسلاحاً سبق في العهد السيوف والبنادق والاساطيل والقنابل، ومراتب هذا الجيش الانساني الاول متفاوتة الخطر والاثر، ولبوسه مختلف التلاوين والازياء، فكما تكون رتبة القائد الكبير تك رتب المظالم والمناكر، ودرجات الغدر واللؤم والرياء، والكل من هذه الاباطيل جنود مجندة من صغير وكبير كأنها جند ابليس، ومعسكر الحق في شاغل من امره، فهو ضائع الصوت، منبوذ البرهان، غريب الوجه واللسان.

ترى أكان من حظ الانسانية منذ كانت ان تشقى، وما العمر وما كنهه؟ انه فسحة متقاصرة من زمن متطاول، ما اراه يتسع لكل هذه البلايا والخطوب.

كذلك ظلم الانسان اخاه الانسان منذ كان، فما احبه وما رعاه، ولا في الملمات اعانه ونجاه، يظلم الفرد الفرد، فيحسد الجار جاره وينفس الاخ المال على اخيه، وتكيد المرأة المرأة، ويجور الرجل على الرجل، ووسائل الاداء في هذا الشر لا يأتي عليها تحديد

اهو انا ام انت. وبعد هذا هل علي ان اخسر الدن. كلا! مت جوعاً هنا سنرى من سيربح القضية.

تركه وذهب ولم يفكر بالثلاث ليرات التي دفعها له في هذا الصباح. ولكن العم ديما فكر بان يدعو الفلاحين الى شبه وليمة ويقدم لكل منهم كأساً من الخمر. لقد تأخروا عن الرجوع الى مساكنهم بسببه فقرروا ان يبيتوا ليلتهم على البيدر في العراء.

ثم ذهب احدهم الى اقرب حانة واتى بزق من الخمر ووضعه قرب الدن. وكانت الليلة على خلاف عادتها ليلة صافية قمراء.

اما دون للو فقد آوى الى داره المشرفة على تلك البقعة وجرب ان ينام ولكن لم تغمض له عين وما كاد يغفى قليلاً حتى استيقظ مذعوراً. فقد طرق مسمعه ضجة الجحيم. خرج الى الشرفة وحدد نظره الى البيدر فرأى تحت ضوء القمر الفضي شياطين وقروداً. هم الفلاحون وقد لعبت الخمرة برؤوسهم فتأبط الواحد ذراع الآخر واحاطوا بالدن ورقصوا. ومما غاظه اكثر من كل هذا ان العم ديما كان يغني من الداخل بصوت تكاد تنفجر منه حنجرته.

في هذه المرة لم يملك دون للو زمام اعصابه. فرمى بنفسه من فوق السلالم كالثور الثائر وهو يهدر، وقبل ان يتمكن الفلاحون من تلافي الامر وامساكه فقد دفع بالدن بكل قواه فتحرك هذا وتمايل ثم انحدر من السفح وكان له قعقعة فاقتها الضجة المتصاعدة من قهقهات اولئك السكارى وتدحرج واصطدم في انحداره بجذع زيتونة فتحطم وخرج السجين. وكذلك ربح العم ديما القضية.

مصطفى آل عبال

تتعايا ذون وصفها الاقلام والالسنة الحداد ، وقد فلسف الانسان حروبه الدائمة الظالمة ، فحلل علماؤه النفوس وعللوا الاسباب ، وصنفوا المنازع والاهواء ، وكان من قبلهم اهل الدين قد سبقوهم الى الكلام في هذا التعليل والتحليل ، فكان الوثنيون يتخيلون آلهة للخير وشياطين للشر ، وكانت الثنوية تملأ دنيا فارس في القديم ، فتقف بين سماطين لا ينتهيان من دنيا الظلام والنور ، والشبور والحبور .

ودس اهل الادب انفسهم في هذا المعترك ، بل زجتهم الطبيعة في الوقيعة لانهم لسان الشعور والتعبير في كل تفكير ومصير ، ورأى الشعراء مظالم الانسانية وتوارث الغل والبغضاء جيلاً بعد جيل فاتبع قليل منهم شرعة التقشف والتعفف ، فتجاوزوا عن السيئات واعتصموا بالمروءات ، وتأبى آخرون فما لانوا ولا استكانوا ، فكانوا من الفريق الذي يدين للقوة ولا يعترف بالضعف ، انهم الطبيعيون ثم انهم الواقعيون ، ومن رأيهم ان الحق للاقوى فراح ابو الطيب يعبر عن خواطرهم في ظلم الانسان للانسان قائلاً :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

الآن اترك ولي الدين ، وآتي ابا الطيب ، فلقد كان هذا الشاعر الجبار يغلو في مذهب القوة ويدعو لبقاء الاقوى ، ولست ادري أكان المتنبي يحب الظلم ويهدف اليه في اطواره ، واكثر ما نراه في شعره انه كان كذلك في كل يوم من ايامه ، فما عرف هواناً ولا رضي بضعف ، لقد كان يحب القوة والظلم من فاتحة عمره الى خاتمته ، ففي شبابه وعنفوانه كان يقول بضرب السيوف وقبل موته كان يقول بطعن الرماح ، وقد اورده الردى يومه الاخير المشهود ، فجز رأسه وراح جسده جزر السباع ، في البيد التي من دونها بيد ، ما عرف قبلها العيد ولا رأى بعدها العيد .

أكان ابو الطيب صادقاً حين رأى الظلم مركباً في طبع الانسان منذ كان ، وان المرء اذا حاد عن الجور والعدوان كان ضعفه وتخاذله سبب حيدته وعفته ، بل كان ذا علة في هوانه على نفسه وعلى الناس ، فما كان اجدر ابا الطيب وقد رأى الظلم فضيلة والتعفف عن الظلم نقيصة بأن يكون قائد عسكر ، وهو لم يقصر في هذا المضمار ، أفما كان يحارب مع سيف الدولة في ديار الروم ؟ وكان المتنبي فارساً وكان ضارباً بالسيف وطعاناً بالسنان ، ولقد كان في شعره صليل الزرد وحمحمات الخيل وهتاف الابطال ، وان اكثر شعره خلوداً كان في وصف المعارك فصدق الذي قال عنه في القديم « واما أبو الطيب فقائد عسكر » .

ولم يكن ظلم الانسان لاخيه الانسان ، مقصوراً على الفرد وانما تسرب هذا الظلم الى الجماعة منذ كانت الجماعة ، فظلم القبيل القبيل ، وحارب الجيل الجيل ، واعتدى الاقوياء على الضعفاء ، فكانت حروب الانسانية ومعاركها ضارية متمادية ما استراحت منها بقعة ولا استراح قوم ، واختلفت حظوظ الجماعات فيها على ترادف العصور ، ففي العصر الذي حمل فيه انسان الغاب سيفاً من حجر ، كانت حربه اجمل حرب ان صح ان توصف الحروب بالجمال ، وما فيها غير المقابح والعيوب .

وترقى الانسان في عقله وعمله ، وتبسط في ثقافته وحضارته ، ولكنه سفل في طبعه وخلقه ، فكان كلما سما عقله واتسع افقه انخفضت نفسه وكفر قلبه والتصق بالمادة طمعه ، فويل للانسان حين ينتهي الطرفان ، عقله وطبعه ، يومئذ يكون الدمار والفناء .

اننا لنغبط ونحن اهل القرن الرابع عشر للهجرة اولئك الاسلاف الغابرين حين كانوا يقاتلون الفرس او الروم بالسيوف والنبال ، وكانوا بين ظالم ومظلوم وقاهر ومقهور ، وكان حظهم في الدنيا اوفى من حظنا نحن اهل الحضارة الاخيرة . لقد اخترعت في عصرنا الطائرات التي تفتك بالالوف ، والدبابات التي تدمر على الحصون ، والغائصات التي تغرق الاساطيل ، فكنا اسوأ حظاً ممن سبقونا في الزمان ، فقد سرهم الدهر على شيبته واتيناه في كهولته ، وشهدت اعيننا بدء عصر أغلب وعهد اشقى ، ومن يدري فقد تحسدنا الاجيال القابلة بأنه كان ظلم الانسان للانسان في زماننا بالبارود والبخار ، حين تأخذهم الراجفة الكبرى في حرب الذرة او ما يكون اروع منها وافظع .

واين نحن العرب اليوم من طغيان الانسانية الغاشمة ، اين تكون ظلامتنا الصارخة ، لقد تألبت علينا دول الغرب ، واصمت الآذان دون سماع حقنا ، وراغت منا تبتغي كل سبيل لغلابنا ونصرة عدونا ، فاذا العالم اليوم في شقين ، واحد هو الشرق وآخر هو الغرب ، واذا بزماننا يشهد ميلاد ظلم جديد من هذه الامم المتهودة الطاغية التي كان من حيف الزمان وكيده ان تكون هي الخصم وهي الحكم ، فتجاهدنا على المطال والمهاودة ، ومشايعة العدو في الباطل ، الا ان هذا هو الكفر بعينه ، وهل الكفر الا غمط الحق وهدم الايمان ودحض الحجة والبرهان .

فنحن العرب الذين نفيء الى الله ونؤمن بعدله ، لن نيأس من روحه ونصرته ، ولن يدخل الوهن والهوان الى نفوسنا مهما ظلم الانسان اخاه الانسان .

دمشق — وداد سكاكيني





احياناً ما يصبح التذكر عملية استرقاقية بليدة مزعجة . في حياتنا الخاصة لا يمتاز الواحد عن الآخر امامنا بالذكاء او الجمال او المال ، فهذه ليست سوى مقولات عامة نصنف تحتها الناس لكي يسهل تعرفنا عليهم ، لكن الجميع يظلون امامنا سواء من حيث انهم ينتمون الى عـالم الآخرين .. حتى تخلق الذكرى تاريخها بيننا وبينهم . ان الذكرى ، وما تحمله معها من جمال وآلام هي وحدها التي تميز بحق هذا الانسان في حياتنـا من دون الباقين .

اننا لا نستطيع ان نجعل من ماضينا مجرد ذكريات ومعاني ، بل نحب دائماً ان نجسده في اشياء مادية ، في صورة او خطابات او خصلة من الشعر او في عيد من الاعياد . فالاعياد ، ورؤية الاشياء المادية تحيل الماضي امامنا الى حاضر وكأقرب مـا يكون الى الحياة الواقعية ، وتؤكد لنا دائماً ان ذكرياتنا ليست من اختراعنا ، بل ها هوذا الدليل : ها هي ذي صورتها ، ها هي ذي خطاباتها ، ها هي ذي خصلة شعرها ، اوها هوذا يوم لقائنا وذا يوم انفصالنا .

ما أبشع ان يقفز الماضي امامنـا ، يجب ان نعيش في طرق جديدة باستمرار ، حتى اذا حدث ان عدنا الى اماكننا القديمة ذات مرة اختلجت نفوسنا باكتشاف هذه الغربة التي اصبحت بيننا وبينه بهذا البعد الذي يقف بيننا وبين ماضينا . ان هذه الغربة ، هذا البعد ، هو الاحـاس الجديد هنا الذي لم نعرفه في ماضينا .

اننـا قد نستطيع ان ننسى مع الزمن هؤلاء الاصدقاء الذين ماتوا وضمهم القبر ، لكننا لا ننسى ابداً هؤلاء الاحبـاء الذين اصطنعنا موتهم في قلوبنا . ان مجرد الفكرة بأنهم احيـاء وان تحركهم اليوم متأثر بلقائنا الماضي وانهم يذكروننـا في لحظات مثلما نذكرهم ، الكفيل بأن يبعث صورتهم امامنا حية ومتجددة .

ان اعظم جريمة عرفتها هي ان تلهو باخلاص انسان وحب انسان وفرح انسان . ان المجرم اذ يقتل آخر فربما يريح هذا الآخر من مشاكل كانت محيقة به ، اما هنا ، حين نحطم قلباً او مستقبلاً فمعنى هذا اننا تركنا ضحيتنا في نزع دائم ، لا تموت ولا تحيا . ولا تنتهي الجريمة بانتهاء العلاقة او الفعل ، بل ان كل لحظة من لحظات هذا الانين المنبعث من ضحيتنـا بمثابة اقتراف الجريمة من جديد ، وكل خطوة يخطوها نحو الالم والشقاء نحن المسؤولون عنها . وليس ثمة غفران من الضحية ولا توبة من الاثم تستطيع ان تمحو الجريمة ، ولا الزمان ، بل كلمـا اوغل كلما تضخمت الجريمة لان الخيبة الاولى قد اعقبتها بالضرورة سلسلة من الشكوك والآلام .

احياناً ما تقف عند لحظة من حياتنا ، بعدها تصبح الذكرى هي كل ما لدينا من واقع .

الحب كالليل كلما اردنا ان نفر منه ازددنا توغلاً فيه .

***

كثيراً ما نحب ان نؤلم الآخرين ، بأن نصور لهم مقدار مـا سببوا لنا من ألم .

حين نتبرم بمدينتنا ، بوضعنا المستقر ، نبحث عن مكان آخر ، فيشيرون الينا بطريق يظن انها تؤدي الى السعادة ، فنسرع حاملين معنا كل ما لدينا من آمال واحلام ، ونظل نسير ونسير حتى نوغل في الطريق .. لكن الطريق يطول ، وعند كل شجرة يهتف بنا

هاتف ان السعادة وراء هذا المنحنى، بعد هذا التل، فنعبر المنحنى، ونرتقي التل، لكننا لا نعثر الا على امتداد الطريق.

كنت ساذجاً يوم كنت فرحاً بالحياة، وسأكون اكثر سذاجة اذا انا تألمت منها.

من طبائعنا نحن الناس ان اخطاءنا هي آخر ما يؤلمنا، انما نتألم حقاً حين نذكر اهانات الآخرين لنا، لانه اذا كان لنا ان نتألم فلنتألم كشهداء، لا كقوم اتاحوا لغيرهم ان يتمتعوا بلذة الاستشهاد.

الالم نوعان: ألم نعانيه حين نريد ان نحقق املاً لنا، وكثيرون يستطيعون تقبل هذا النوع من الالم لانهم يجدون في آمالهم ما يبرر لهم تألمهم. لكن هناك ألماً اعنف واعمق، ذلك الذي نعانيه حين نتألم بلا امل، واغلب الناس لا تعاني هذا النوع الا كحالة امتداد تخمد مع الزمن، اما القليلون فيجعلون منه لحظة حاسمة: اما ان يقضوا على انفسهم الى الابد، واما ان يصبح لحن المعجزة في حياتهم.

والالم نوعان: ألم تافه يكون مبعثاً للضيق والضجر، منبعه الاحساس بالضعف المقرون بنفوذ الآخرين في حياتنا، هذا نحاول ان نقضي عليه لانه يشلنا. والم عبقري يكون مبعثاً للحياة والتعمق، منبعه الاحساس بالقوة، هنا لا يكون الالم منبعاً لاحساس بالضعف او التردد او التراجع، بل انه ليدفع ويكتسح كل ما يعترضنا.

من المزعج ان يكون عليك ان تعيش باستمرار فيما يحياه الناس لحظة واحدة، حقاً انها صورة فنية رائعة، لكن من المرهق ان تكون انت الانسان المختار لهذه الصورة. من هنا يتألم البطل، لان بطولته تتمثل في انه استطاع ان يعطينا مثالاً واضحاً ضخماً لجانب من جوانبنا الانسانية العديدة، لكن على حساب جوانبه الاخرى.

اذا ازدنا ان نحيا الحياة الهادئة فيجب ان نتفه في نظر الآخرين حيث لا يعودون يطالبوننا بأكثر ما نستطيع، اذ ان العظماء والعباقرة هم الذين يطالبون دائماً بأكثر مما يملكون.

تلك هي معجزة الانسان: في قدرته ان يتحمل وطأة اللحظة التي منها ستنبع آلامه مدى خمسين او ستين عاماً مقبلة.

الدموع.. ارق اعترافاتنا.

***

قد يكون شغفنا بمن نحب فيه معنى ما من معاني الاهتمام بالغير، اما التألم لفقده فليس اهتماماً بآخر كما نحب ان نتوهم، بل هو اغراق في التفكير في انفسنا.

الويل لمن ربط مصيره بمصير انسان آخر بحيث اذا انفصل عنه هذا الآخر، لم يستطع هو ان ينفصل عنه.

كما نحتاج الى الشجاعة كي نتقدم، كذلك قد نكون في حاجة الى الشجاعة كي نهرب. لكن الشجاعة التي نكون في حاجة اليها ونحن على وشك الاقدام نحو مصير مجهول ليست من نوع الشجاعة التي نكون في حاجة اليها ونحن نبغي التخلص من مصير علق بنا حتى ارهقنا. ان الشجاعة الاولى تتعلق بالممكن، اما الشجاعة الاخرى فتتعلق بما يبدو مرتبطاً بالمستحيل.

عند الفراق يحرص المحبون ان يجعلوا لحظات وداعهم رقيقة هادئة، فهي آخر ما تذكرهم بحبهم، ولان لون هذه اللحظات يصبغ كل العلاقة الماضية ويمتد على كل ما كانوا قد كونوه من ذكريات واحلام. والويل لمن كانت هذه اللحظة في حياته لحظة توحش وانتقام.

حبي، كجنين ملعون، قضي عليه الا يرى النور.

عندما كنت طفلاً، كنت احياناً ما اشاهد جاراً صغيراً لي يلهو بدودة من ديدان الحرير، فيدوس على جزء من بطنها حتى تنفجر دماؤها ثم يرقبها تتحرك حاملة معها هذا الجزء المشوه. وعندما كبرت علمت اننا قد نشبه هذه الدودة، حين نجر وراءنا في ألم هائل ماضياً كنا قد اذنا لآخر ان يعبث به.

كثيراً ما نشبه ذلك الجندي الذي يصاب اثناء المعركة بجرح خطير، لكننا لا نحس ألماً لاننا مشغولون عنه بدفع الم اكبر، حتى اذا انجلت المعركة نظرنا فرأينا خطورة الجرح الذي اصابنا!

يا إلهي، منذ اطفأت بأناملها انوار غرفتنا الذهبية، خبا العالم وانطفأت قيمه امامي، ثم تسللت على اطراف اقدامها العريانة وتركتني وحدي اعيش في الظلام.

وتلك هي ثروتي التي منحتنيها يا إلهي: نفس تشتعل، وجرح لا يريد ان يندمل، وركام من الآلام. فامنحني المزيد يا إلهي حتى استحيل الى نشيد صاخب. اريد الالم الذي يخلق من المعجزة ويحيل كل ذرة مني الى لهيب، الالم الذي يفسح الطريق امامي لسبعين سنة او ثمانين اخرى.

***

الروح حزينة، لان الرغبة اعنف من الجسد.

ان الناس لا يعرضون سوى قشورهم الوهاجة ، لهذا لا يرون من الآخرين سوى تلك القشور . آه لو عبروا هذا الوهج ، لو أزاحوه عن انفسهم قليلاً ، اذن لهالهم ما في داخلهم من العتمة . آه لو عرف الانسان اعماق اخيه الانسان ، اذن لعرفت البشرية سر لعنتها .

في اللحظة التي فيها يصبح الاخلاص عنصراً جوهرياً في حدث ما ، هي اللحظة التي فيها يبدأ الحدث يستحيل الى اسطورة تقبل المعجزة التي هي فوق طاقة الكائن البشري والتي لا تخضع لفهمه العام .

يأتي زمان حين تستيقظ الحاجات التي كانت قد وئدت قبل ان تستحيل الى رغبات ، والرغبات التي تبلورت في سراديب النفس حتى عانت آلام المخاض ثم صدمها النور ، فأبت ان تشق طريقها حتى تسربت في آلاف الصور والافعال ، ومضت تحقق نفسها على نحو عربيد غني مجنون . حتى يصبح التسرب مقولة جوهرية في حياة الواحد منا .

عندما يتاح لنا ان نفتح اعيننا على العاصفة ، ندرك مقدار الجهد الذي يجب ان نبذله من اجل ان نحتفظ بالمشعل منيراً في ايدينا . وقد يأتي زمان تهز فيه العاصفة مشعلنا هزاً عنيفاً ، فتتراقص الظلال حولنا ، وتتوهج تماثيل سوداء في روحنا ، حتى تلهينا لحظة عن المشعل الذي بأيدينا فينطفىء . لكننا نعود نضرب في الظلام بعنف من اجل ان نعثر على المشعل ، يدفعنا الى ذلك ايمان بنفوسنا وبالانسانية حيث نجد الخلاص الحق لما نعانيه من اضطهاد لعواطفنا وافكارنا في حضارتنا هذه الصاخبة . بهذا تهبنا الظلمة الحياة بمعنى ما .

ان لحظة الخلاص ، هي اللحظة التي فيها عندما يتحطم مصير الانسان ، يبدأ ايمانه بمصير البشرية .

فجأة يتردد في انحاء النفس ذلك الدوي الهائل الذي انبثق منذ امد طويل ، منذ اليوم الذي ارتطم فيه الحلم بالواقع . فيدرك جوهر حضارتنا الزائف الذي ظل يدفع بالحلم الى المغاور والكهوف حتى جرده من لعابه السائل واوهامه الخضراء ، وظل يطارده حتى في الظلام ، حيث نشأ الحلم وحيث لجأ يريد المأوى . وعندما يبلغ اليأس كل مطارد فانه ينقلب من هارب الى مهاجم . وهكذا في اللحظة المجنونة ، عندما قلل الحلم استحال الى ثورة فأحال المغاور والكهوف الى معامل للبارود ، وظل يدب فيما تبقى له من جنات سحرية يحطمها ويعد اخشابها ليوم الحريق .

الحلم هو الذي يدفع الناس ان يضيفوا اعداداً الى اللانهاية املاً في الحصول على نهاية .

لكم من مرة نأمل في آخر ان يحمل عنا آلامنا ، فعدنا من عنده ونحن اكثر تألماً ، ومع ذلك فنحن نتناسى ونلقي بأنفسنا مرة اخرى ، فالشبكة لن تخرج فارغة على اية حال .

وهكذا نتألم جميعنا : بعضنا يتألم لانه اقترف الخطيئة او بعضنا يتألم لانه رأى آخر يقترفها ، بعضنا يتألم لانه جوعان لا يحصل وبعضنا يتألم لانه حصل فازداد جوعاً . بعضنا يتألم لانه يشعر انه بطل في مأساة اختارها القدر له ، وبعضنا يتألم لانه يجهد مخاصاً في ان يتحرر من كل سيطرة او قدر . ثمة آلام نعانيها لكنها - كالضحايا التي ظل يقدمها بنو اسرائيل آلاف السنين قبل المسيح - ليست سوى تهيؤات ورموز لتجربة الصلب في حياتنا . وهنا نبلغ قمة مرتبة التأله ونحن نتحمل هذا الالم الذي سيمهت امامه كل ألم جديد . ان التجربة التي تقوم بدور الكفارة في حياتنا تحصنناضد الآلام كل تجربة مقبلة . بهذا نحس بالكبر ، وبهذا يتم الخلاص .

***

ان الفاجعة تكاد تكون دائماً محور القصة او التجربة ، اما الفرح فهو وحده النهاية الشرعية .

ونحن نستطيع ان نضع معالم واضحة لما نحلم به من اجل ان نصل الى السعادة ، وبعد ذلك تضيع منا معالم الحلم بين ضباب نشوان .

وحالة الخلو من الالم يمكن ان نسميها بالطأنينة ، اما الانتصار على الالم فهو وحده الفرح الحقيقي العميق .

وذلك هو كفاح الانسانية في كل تاريخها : الارتفاع على كل ضروب الشقاء ، حتى تبلغ السعادة التي هي اكبر من كل انسان .

والالم نوعان : ألم نعانيه من اجل الفقد ، يستمد وجوده من الماضي ، ويكاد يكون دفاعاً آلياً عن النفس ، مهما بلغ من الخصوبة والعنف فهو شكوى وتبرير واتهام . وألم نعانيه من اجل الحصول ، يستمد وجوده دائماً من اللحظة المقبلة ، وهذا الالم بذل ارادي من النفس ، فهو جهد ولباقة وخلق .

ان الجميل يحافظ على نفسه اينما وجد : في الحجر الجامد او في السيمفونية الرائعة او في القلوب او في الذكريات .

القاهرة — يوسف الشاروني

طريق الحياة

☆

حياتك ان تضحي بجهدك او تمسي … وجدك من سعد تصادف او نحس
فسر هازئاً من ريب دهرك باسماً … فما القصر او تدري احب من الرمس
طريق لها عند البزوغ بداية … نهايتها جازت بنا مغرب الشمس
لك الانس او خيرت لكن برغمنا … تسيرنا الاقدار في البؤس والانس
شكول مجاليها قليل ثبوتها … سنا العرق ما بين الجنازة والعرس
تعاقب ايام وشتى حوادث … فلا ذكرها يجدي ولا كرها ينسي
الا ايها الناعي على الدهر غدره … اذاما دهاك الهم فاعكف على الكأس.
تذوقت الوان الحياة فلم أجد … لذاذتها في النفس ابقى من البؤس
تمرست بالدنيا فلما خبرتها … زهدت بلا عجز وعفت بلا يأس
فان اقبلت ما غل اقبالها النهى … وان ادبرت ما فل ادبارها بأسي
سموح على الحالين سيان موسراً … بها كنت او خالي الوفاض بلا فلس
فلا شاكياً دهري ولا داعياً غدي … ولا راجياً يومي ولا باكياً أمسي
درست على شيخ الصروف مثائلي … فعلمني من حيث ألمني درسي
صمدت وجيش النائبات مهاجم … ومن قلمي رمحي ومن جلدي ترسي
ولما رأيت الشمس ترسل نورها … جزافاً بلا من رفعت لها رأسي
وارسلت افكاري تشعشع في دجى … همومي وان كانت تذوب بها نفسي
كذلك ابصرت الخلود بصورة … من الصدق لا تبقي مجالاً الى الحدس
فما الحي في جسم يسير على الثرى … بل الحي في فكر ينير على الطرس

الولايات المتحدة

نعمه الحاج

الفن في القرن التاسع عشر

بقلم الدكتور عبد الرحمن لباد

☆

ليس الحديث عن الفن بوجه عام من الامور السهلة ، خصوصاً اذا كان هذا الحديث باللغة العربية ، ذلك لاننا لا نزال نفتقر الى المفردات المستعملة في هذا الموضوع . ولاننا لسنا في وضع يساعدنا على رؤية الروائع الفنية ولو على شكل ضئيل منها ، ولاننا – بالاضافة – لا نملك من الفن ما يحلنا في تاريخ التصوير الحديث مكانة تخولنا حق التحدث عنه بجرية او اسهاب .

والحديث عن الفن صعب بأية لغة كانت ، ذلك لان الفن شعور فردي خاص من الصعب جداً ان ينتقل عبر الكلمات من واحد الى آخر . و كل المحاولات التي قام بها النقاد والفنانون وغيرهم لشرحه وتفسيره اسفرت عن تبلبل خطير وغموض معقد تعقيداً لا نعرفه في أي موضوع آخر ، لذلك نرى نحن اليوم في بحر خضم من المنتوجات الفنية من تصوير ونحت وموسيقى نتضارب اذا ما تحدثنا عنها ، ونتنازع اذا ما حاولنا تفضيل بعضها على بعض ، ونختلف كل الاختلاف اذا قمنا نصنفها اونقسمها ونرتبها الى مدارس ومذاهب .

واليوم تريدونني ان اتحدث عن الفن في القرن التاسع عشر ، وان كان من تعقيد في الفن ففي فن هذا القرن من دون القرون الاخرى ، لان القرن المثل لتاريخ الفن كله ، ولذلك ارى ان خير وسيلة نستطيع بها ان نكوّن فكرة شاملة عامة عن هذه الحقبة من تاريخ الفن هي ان اعرض عليكم المدارس والنزعـات الفنية التي ازدهرت في القرن الماضي عرضاً شاملاً عـاماً . وسنولي جل اهتمامنا الى التكلم على الاسباب والدوافع التي خلقتها :

انني لا اريد ان اخوض غمار حديث متشعب حول ماهية الفن ولكنني اعتقد ان تحديداً اولياً للفن يعد ضرورياً لفهم فن القرن التاسع عشر ، وذلك التحديد هو في الواقع نتيجه حتمية لفن ذلك العصر . فالفن فكرة شعورية خاصة بالفنان يعبر عنها بنفسه بواسطة المادة ، وهذا التحديد لا يمت الى الجمال او الجمالية – كما يفهمهـا الكثيرون – بصلة .

اما قيمة الفن فليست في قدرته على محاكاة الطبيعة وتقليدها بل في الدرجة التي يبلغها الفنان بنقله لفكرته الشعورية من حيز الفكر والخيال الفردي الخاص الى مجال اوسع واعم ، اي تكمن القيمة الفنية في درجة نجاح الفنان في تعبيره عن ذاتيته تعبيراً يساعد الآخرين على فهمها ووعيها فهماً ووعياً مماثلين للاصل ومثيرين لشعور كشعور الفنان المبدع . فالفكرة بحد ذاتها خالية من الاهمية ويبدو ذلك واضحاً في فن التصوير اذ ان الرائعة قد تصور لنـا منظراً طبيعياً او حدثاً دينياً او ميثولوجيا او اشياء تافهة لا تعدو ان تكون حفنة من البطاطس او حذاءين ، او كرسياً وغليوناً وورقة تبغ . وهي في هذه المواضيع كلها ذات قيمة فنية واحدة .

ويتبدل الاسلوب والالوان كالموضوع ، لتوافق مزاج الفنان وغرضه ، وتحقق غايته وفكرته ؛ وسنرى هذا خلال البحث .

تتكون اللوحة من عناصر عدة ، نستطيع ان نجملها في ثلاثة اقسام :

الموضوع : وهو موضوع اللوحة ، او الفكرة الاولى لها وقد يكون الموضوع فكرة مجردة « كالايمان » و« الامل » وغيرهما ، او حادثة دينية « كصعود المسيح الى السماء » او « صلبه » او « العشاء الاخير » ، او حادثة ميثولوجية او روائية ادبية او تاريخية « كمركب دانتي » او « عربة الشمس » او « هركول يصارع الحية » ، او « دخول الصليبيين الى القسطنطينية » او « التقهقر عن موسكو » . وقد يكون الموضوع منظراً عادياً يلتقطه الفنان من

* القيت هذه المحاضرة في الدرس العاشر من سلسلة تاريخ التصوير الزيتي الذي تعطيه اللجنة الفنية في النادي الثقافي العربي في بيروت .

اي مكان او موقف من مرافق الحياة « كالزارع » و« قاطعو الاحجار » ، « واللاقطات » وحفلات الرقص والمستحمات ، و« راكبو الدرجة الثالثة » او فتاة تقرأ او غيرها . وقد تحوي اللوحة صورة شخص معين ، او منظراً بحرياً ، او تمثل بعض الادوات اليومية ، والفاكهة والحيوانات وما الى ذلك . والذي اريده من هذا الترديد هو ان أظهر لكم تعدد الموضوعات القابلة للتصوير وتباينها وتنوعها .

الشكل : وهو قسمان الشكل العام وهو الشكل الخاص بالتركيب العام لاجزاء اللوحة واقسامها وهو نتيجة مقررة للتركيب والتأليف وذو اثر فعال في النفس للوهلة الاولى ، وهو بدوره متعدد الترتيب كالشكل الاهرامي او المثلث اوغيره .

والشكل الجزئي وهو جزء من الاشكال الثانوية التي يتألف منها الشكل العام . وقد تتكون منها مجموعات متعددة اهرامية او دائرية او غير ذلك .. وتتضمن هذه الاشكال الجزئية اشكال الاشخاص والمفردات حسب الموضوع . وسنرى فيما بعد كيف تناول الفنانون في اواخر القرن التاسع عشر هذه الاشكال ، بالتبديل والتحوير .

الخطوط والالوان : وكلكم يعلم ما اريده بها ، فلا حاجة الى التحدث عنها .

اذا تذكرنا هذه العناصر الثلاثة استطعنا ان نكون فكرة واضحة عن سير الفن وانتقاله من مدرسة الى مدرسة حتى وصل الى الحالة التي وصل اليها اليوم .

بدأ القرن التاسع عشر بعد ان اتعبت الحروب والحوادث فرنسا ، ونختار فرنسا لانها في الواقع نقطة البداية التي انطلق منها الفن الحديث كما نعرفه اليوم . فقد اجتاحتها ثورة عاصفة لم تبق من ماضيها شيئاً ، انتشرت على اثرها آراء ومبادىء جديدة كما انقرضت بواسطتها آراء ومبادىء قديمة بالية ومن الامور التي انقرضت تلك الملكية الفرنسية الجامحة والاستهزاء بالطبقات الفقيرة الدنيا . ومن الامور الجديدة التي ظهرت ، شعور منطلق بالفردية والذاتية وحرية تامة في التعبير عن النفس دون خوف او وجل فرأينا بعد ذلك كتاباً يحملون الاقلام ليكتبوا اعترافاتهم او قصصاً رومانتية لا تمت الى الدين او الميثولوجيا اليونانية بسبب، ولا تتملق الطبقات الحاكمة او النبلاء او رجال الكنيسة ، كما بدأنا نسمع الحاناً جامحة ثائرة تعبر عن نفس جامحة ثائرة تشعر بكيانها وحريتها ، ورأينا لوحات انطلقت اشخاصها وخيولها من مواقفها الجامدة الهادئة في حركة جريئة ثائرة . فتحطمت السلاسل وانفرط عقدها فاذا الجديد على قدم وساق واذا القديم البالي ينازع آخر انفاسه لوقت طويل ولا يموت . وهذا الاندفاع الزاخر بالقوة والطاقة هو المحرر الاول الذي اطلق للفن ساقيه فجرى ثم خب ثم ركض ثم جن وطار .

لنتريث قليلاً نستعرض تلك العوامل التي اعتقد انها اخطر عوامل عرفها الانسان منذ ان تدين بالاديان المنتشرة اليوم ، خلقت بفعلها حياة جديدة وعصراً جديداً ، وثقافة جديدة وفناً .

في اواخر القرن الثامن عشر سقطت الملكية في فرنسا وبسقوطها تقلقلت العروش الاخرى في الغرب مباشرة وغير مباشرة وبعد وقت طويل في الشرق . وسقطت مع الملكية طبقة الاغنياء والارستقراطيين والنبلاء . وبذلك خلت اماكن الحكام فقام الشعب والمفكرون بتجارب جديدة فأنشأوا ما نعرفه اليوم بالنظام الجمهوري المؤسس على المبادىء الديمقراطية التي تمنح الفرد — نظرياً او فعلياً — حرية الرأي والايمان والمعتقد والقول والفكر . فكانت هذه التجارب السياسية اولى تلك العوامل .

وبهذا النظام الجديد ارتفعت الطبقات الدنيا فاحتلت اماكن النبلاء وتدنت طبقة الاستقراطيين فعاشت عيشة الفقراء المعدمين مما ادى الى تبلبل اجتماعي تطلب تجارب جديدة اخرى ، كي يستقر ويهدأ .

وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر ظهرت الآلات التجارية السريعة ، والتلغراف ، وآلات التصوير ، فظهرت معها التجارب العلمية المستحدثة فاذا العصر بكامله عصر تجارب بحث فيه الجميع عن انظمة ووسائل جديدة وشمل البحث على مرافق الحياة والعلم والفن . فلا عجب اذا راينا الفنانين يزجون بأنفسهم في زمرة الباحثين ويشرعون بالتجارب وهم هم المرآة الصادقة الامينة لعصرهم وبيئتهم ومحيطهم .

وفي عام ١٨٥٩ نشر المفكر « داروين » كتابه الخالد « اصل الانواع » فهز به اسس الايمان واحدث بذلك نزاعاً فكرياً اجتماعياً وروحياً جديداً ادى بدوره الى تجارب علمية وبيولوجية وفكرية ، وحرر العقل من قيوده وفتح امامه حقولاً جديدة يطرقها ، كما افسح له مجال الاستقصاء والبحث والتنقيب ، ومنحه ميزة الناقد الحر النزيه المجرد ، وبذلك كله جعل الانسان مستطلعاً ، اوسع فكراً مما كان عليه من قبل ، يتقبل النقد دون ثورة او تذمر ، فتسربت الى الغرب تعاليم الشرق وافكاره ، ومعها تسربت تصاوير

اليابانيين وخزف الصينيين المزركش وسجاجيد الفرس ورسومهم، فأخذ الغربي يقابل بينها وبين فنونه ويدرسها ويحاكيها فاذا به يدرك ان هنالك ثقافات اخرى غير ثقافته، ومدنيـات وفنون متعددة ان كانت تختلف عـن فنونه ومدنيته فهي ليست في اي وجه من الوجوه أدنى منها او احقر، بل ربما كانت في الواقع ارفع مما لديه واثمن. وكان اثر هذا الفيض من الفنون الشرقية واضحاً كل الوضوح عند الفنانين امثال فان كوه، وكوغان ودي شافان واخيراً ماتيس.

وهنالك عامل مهم كان له اكبر الاثر في تحرير الفنـان من قيود الماضي وضعف المدرسية المتواتر، وهو انقراض تلك الفئة من الملوك والنبلاء، ورجال الكنائس الذين قيل عنهم انهم رعوا الفن وناصروه. ففي الماضي كان الفنان اداة في ايدي هؤلاء، يعمل حسب ارادتهم وطلبهم مضطراً. وكانت لوحاته اجابة لطلب منهم ينال على صنعها أجراً يتفق واياهم عليه قبل ان يخرجها. وكانت شهرة الفنان بالتالي تتوقف على درجة ارضائه لصاحب العمل، وقيمته الفنية على ما يضفيه عليه هذا من مال او جاه او مكانة اجتماعية او سياسية مرموقة، ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى فئة قليلة من اعاظم الفنانين امثال ميخائيل انجلو ورمبرانت.

في اوائل القرن الماضي وجد الفنان نفسه وحيداً دون معيل او راع، يعمل لا لأن واحداً من الاغنياء او الملوك طلب اليه ذلك، بل لانه شعر في قرارة نفسه برغبة ملحة للتعبير عما يختلج فيها، فحمل ريشته وملوناته وانكب على اللوحة يبثها خلجات نفسه وثورتها وحدة شعوره وحرارته بالشكل الذي أدركه هو وشعر به وفهمه ووعاه، وكما اراده وأحبه. وبذلك غدا للفنان فكرة ورأي ومبدأ. وكان هذا جلياً واضحاً في المدرسة الرومانتية حتى وفي المدرسة الكلاسيكية الجديدة ايضاً، التي ترأسها لويس دافيد.

وبقي الفنان دون راع الى يومنـا هذا يولد ويعيش ويموت منبوذاً مهملاً وفقيراً معدماً الا انه خالق مبدع مستقل، اذا اراد ان يتغنى بمجد فبقوة انجلو وجبروته وتحديه للبابا، او بقول روبنز انه يتلهى بالسياسة في اوقات فراغه. وهو بالرغم من ذلك كله، او بالاحرى بسبب ذلك كله يقدم لنا اشياء لم نعرفها عند امثاله في القرون الخوالي، اشياء اقل ما يقال عنها انها من نتاج روحه ونفسه وقلبه، ليديه واصابعه وعضلاته، اشياء هي في الواقع قسم من ذاته يشعر معها ويحبها ويخرجها كما يهوى، ولا غرو اذا عددناها مثالاً موثوقاً به لتكوينه النفساني وافكاره وفلسفته وآرائه.

وهكذا كان القرن التاسع عشر العصر الاول الذي اصبح فيه الفنان حراً طليقاً، والفن عامة، والتصوير بوجه خاص، اداة تعبير عن شعوره الذاتي وفلسفته الخاصة، وصار كالموسيقى وكالشعر، جزءاً لا ينفصل عن حياته ومبادئه.

المدارس التصويرية في القرن التاسع عشر

ظهرت في القرن التاسع عشر مدارس عدة تجعل التحدث عنها كلها في ساعة كهذه امراً مستحيلاً. ويجب الا يفوتنا ان نلاحظ ان معظم هذه المدارس كان نتيجة ثورة نفسانية او ادبية او اخلاقية، حتى ان الباحث ليتيه خلالها فلا يعرف من اين تبدأ الواحدة واين تنتهي، كما انه يلاحظ تشابكها واشتراكها في لوحات بعض الفنانين امثال «ميليه» Millet الذي جمع بين الواقعية والرومانتية، او «مانيه» Manet الذي وصل بين الواقعية والانطباعية والذي يعده بعضهم مؤسس المدرسة الانطباعية لانه اضفى على الظلال شيئاً من النور الشفاف وهو امر لم يعهده احد من قبل.

المدرسية الجديدة (Neo-clssicism): ظهرت هذه المدرسة خلال الثورة الفرنسية وبعدها في ايام نابليون. وقد حمل لواءها الفنان الفرنسي لويس دافيد (Louis David) وهي بالرغم من انها كلاسية تختلف اختلافاً واضحاً عن المدرسة الكلاسية التي عرفتها فرنسا قبل الثورة، اذ ان دافيد وزملاءه عاشوا في عصر خال من الابهة الملكية والطبقات النبيلة الطاغية فلم يعرفوا الرياش والغنى الفاحش وحياة القصور التي عرفها اساطين المدرسية

●

الحرية تقود الشعب – لدلاكروا ١٧٩٨ – ١٨٦٣
وفيها دلاكروا ثورة جامحة ودعوة الى التمرد والنزاع والتحرر، وهذه خير لوحة تمثل هذه الصفات وقد ظهرت مع الثورة الفرنسية عام ١٨٣٠، وهي مزيج من الواقع والخيال والدرامائية الرومانطية العنيفة.



ساحة الكونكورد – لديجاس ١٨٣٤ – ١٩١٧

ولكن المدرسة الواقعية الانطباعية انعتقت من قيود المرسم والخيال واخذ اتباعها يصورون المناظر العادية التي يرونها في كل مكان متأثرين بآلة التصوير، وهذه اللوحة ترينا احدى تلك المواضيع المألوفة التي نراها دائماً في الشارع والحدائق العامة والطرقات والحفلات. وهذه المواضيع تتطلب عملاً سريعاً مباشراً ولذلك كان معظم اتباع الواقعية انطباعيين أيضاً يصورون لوحاتهم خارج مراسمهم – في الشارع او الطريق او الحدائق وغيرها – ويدونون انطباعاتهم بسرعة وعجلة مما اضفى على لوحاتهم صفة المسودة (Sketch) لا اللوحة المصممة التي عرفناها.

●

القديمة امثال بوشيه (Boucher) وزملائه فقد كان هؤلاء يعمدون الى حاشية الملك وحدائقه وقصوره ليختاروا منها مواضيع لوحاتهم او نماذج لموضوعاتهم الميثولوجية وغيرها يصورونها باسلوبهم المرح الارستقراطي والوانهم المذابة الرقيقة الناعمة الانثوية (Rococo).

اما دافيد وزملاؤه فقد شرعوا يعتمدون الناس بوجه أعم ويختارون نماذجهم واشخاصهم من الحياة كلها يصورونهم بأسلوب بارد جاف، وخطوط واضحة محددة، والوان قليلة، واشكال قريبة الى النحت، وقد عدّ الناس هذه المدرسية فتحاً جديداً في التصوير فرحبوا بها وتقبلوها بحرارة واندفاع. وقد حمل مشعلها جان اوغست انجر (Ingres) حتى عام ١٨٦٠ وهو الذي يلخص مبادىء هذه المدرسة بقوله: «الرسم هو كل شيء، اما اللون فلا شيء.»

وفي الوقت ذاته كانت الثوره الفرنسية وما تبعها من حركات سياسية وفكرية واجتماعية وفلسفية على اشدها. وكانت الحياة زاخرة بالحرارة والقوة المنطلقة بلا قيد او رادع وعواطف الشعب والثائرين مشتعلة تضطرم وتبحث عن منفس لها ومهربٍ وقد عمت الثورة العاطفية كل نشاط فاذا بالفنانين اكثر حرارة واقوى عاطفة وشعوراً من الذين سبقوهم فلا غرو ان هم وجدوا فن دافيد البارد دون ما يبتغون، فانطلقوا يبحثون عن فن جديد اوسع مجالاً واقوى على التعبير من المدرسيين وكان قائد هؤلاء الفنانين فنان قضى عليه الموت وهو في عنفوان شبابه ونشاطه اذ توفي في الثالثة والثلاثين بعد ان وضع اسس المدرسة الجديدة – المدرسة الرومانطية او العاطفية – التي قادها من بعده اوجين دلاكروا (E. Delacroix) اما المؤسس فهو تيودور جريكو (T. Gericault) صاحب اللوحة المعروفة «بطوافة المدوزا» ولهذه اللوحة قصة تعبر كل التعبير عن حقيقة هذه المدرسة الجديدة ومبادئها. فقد كانت الموضوعات الفنية حتى اوائل القرن الماضي مستقاة من الحوادث التاريخية او الميثولوجية أو الدينية، وقد اقتصر المدرسيون عليها دون سواها يدرسونها ويصورونها ضمن جدران مراسمهم، ولئن بقي الرومانطيون يستمدون من هذه المراجع الثلاثة بعض مواضيعهم الا انهم في الوقت ذاته ولوا ابصارهم وجهة جديدة واقعية، فأخذوا يدونون بعض الحوادث التي جرت في عهدهم وعلى مرأى منهم مع الملاحظة انهم كانوا دائماً يختارون المواضيع الدراماتية والعاطفية العنيفة. فحينما سمع جريكو بغرق المركب «مدوزا» وقصة نجاة بعض بحارتها على طوافة صنعوها من اخشاب المركب الغارق وجد في هذه الحادثة موضوعاً لا يقل اهمية عن المواضيع الكلاسية القديمة الاخرى. فأراد تصويره، ولكنه في عمله هذا نحا منحى جديداً فذاً اذ عمد الى الذين نجوا من الغرق فتحدث اليهم وطلب منهم ان يصنعوا له نموذجاً صغيراً للطوافة التي نجوا عليها، ثم ذهب الى دار الجثث فدرس الاموات، والى المستشفيات فدرس المصابين، ثم اتخذ من الاشخاص نماذج لاشخاص لوحته، حتى انه صور صديقاً له مصاباً بالريقان بينهم، ورتب اللوحة وألف بين اشكالها فجعلها على شكل اهرامي قاعدته اشخاص ضعفاء واموات وقمته فتى ملأت جسمه القوة مفتول العضل، تدب الحرارة في ذراعيه وكتفيه دبيباً واضحاً بيناً وقد خلف جريكو بلوحته هذه نزاعاً مستحكماً بين المدرسيين والرومانطيين يحاول كل فريق اثبات مبادىء فنه والدفاع عنها.

وخلا الجو بعد موت جريكو لدلاكروا، فكان الرومانطي الحقيقي الاول واكثر الرومانطيين موهبة. وكان في الوقت ذاته واحداً من الحلقة الاباحية الثائرة التي ترأستها جورج صاند وجمعتها في دارها فغذتها ونفخت فيها روح الجموح والعناد والتمرد

فاصبحت مركز الانطلاق الاول للثورة الفرنسية الثانية التي عبر عنها دلاكروا بلوحته المشهورة « الحرية تقود الشعب » .

وقد اعتمد دلاكروا في اختيار موضوعاته على التاريخ والادب فصور « دخول الصليبيين الى القسطنطينية » و« مذبحة سيو » وحروباً عديدة ، وصور مناظر عدة من روايات شكسبير واشعاره وخصوصاً « هملت » وقد اغرم بالشرق وعلى الاخص شمال افريقيا لما فيه من الالوان الزاهية الساحرة ، فذهب اليه وعاش فيه وقتاً طويلاً يدرس الالوان الطبيعية والفرسان العرب وحياتهم ، وصيد الوحوش الضارية . فكان له من هذه كلها موضوعات دراماتية عاطفية زاخرة بالحركة والحياة وهي المميزات المعروفة عن المدرسة الرومانطية .

وكان دلاكروا ملوناً من الطرز الاول ، ترك اثراً بعيد المدى في من تبعه من الفنانين ؛ وقد قال يوماً يشرح مبادئه : « اللون الرمادي عدو التصوير بجميع فروعه ، فلنحذف من ملونتنا كل الالوان البنية (الترابية) والشبيهة بها ، ولندع لمسات الريشة واضحة متقطعة ، فلا نصهرها ونمزجها ، وهكذا نضفي على اللوحة الحرارة والقوة والنضارة . وكلما ازداد تضارب الالوان كلما ازداد زهاؤها ونضارها . » وهذه آراء عرفها فيما مضى كل من « كونستابل » و« وطوا » و« روبنز » و« تيسيان » وقد بلغت ذروتها في المدرسة الانطباعية فيما بعد .

وقد نشأ عن هذه المدرسة الرومانطية مدرسة رومانطية خاصة عرفت بالمدرسة الباربيزونية (Barbizon) لان افرادها الفوا جماعة قطنوا معاً احدى ضواحي باريس ، وهي قرية صغيرة اسمها باربيزون . نذكر من اتباعها اثنين من الفنانين المعروفين — كورو (Corot) وميليه . وقد بدأ معظم الباربيزونيين حياتهم الفنية على خطى المدرسيين وخاصة كورو ، ولكن الرومانطية طغت عليهم فانقلبوا عاطفيين محبين للطبيعة ، وتأثروا بالمدرسة الهولندية و« برسدايل » كما تأثروا بآلة التصوير فمزجوا رمانتيتهم بالواقعية وغالوا في نقل دقائق الامور والجزئيات . ولكننا نستدرك فلا نقول ان الواقعية بدأت بالمدرسة الباربيزونية فقد عرفنا آنفاً ان جريكو كان واقعياً حينما صور طوافة المدوزا ، والواقعية كمدرسة لم تتكون بوضوح الا عند ميليه وكوربيه (Courbet) وهو زعيمها ، ودوميه (Daumier) . وكان الواقعيون انتقاديين ثائرين وخير دليل على ذلك تلك الرسوم التي صور فيها دوميه بؤس الطبقة الفقيرة وكدها وكدحها وفقرها وشقاءها كما صور المرض واثره وضحاياه ، وصور كوربيه « فتيات نهر السين » وهي دعوة مكشوفة ضد الحياة العابثة اللاهية . ودوّن ميليه في لوحاته كل ما تستطيع ريشة الفنان تدوينه عن شقاء الفلاح وقساوة عيشه وجور الحياة ووطأتها عليه ، ونفسية اهل الحقول والقرويين .

وقد تعدت الواقعية فن التصوير ولحقت بالآداب فكان من المتحمسين لها الكاتب الفرنسي اميل زولا ، وهو لا يقل واقعية في ادبه عن الفنانين ان لم يكن يفوقهم ، فقد كان ، كجريكو من قبله ان اراد كتابة قصة ما عمد الى اماكن حوادثها واشخاصها فدرسهم وتحدث اليهم وعاشرهم وكان ينتقل من بلد الى آخر وراء المعلومات . واليكم حادثة صغيرة توضح لنا الواقعية الادبية عند زولا :

قدم سيزان ذات مرة فنسنت فان كوه الى اميل زولا فجلس الاثنان يتحدثان . وسأل زولا جليسه الجديد عن اسمه فقال :

— فنسنت فان كوه .

فعلت محيا الكاتب نظرة غامضة دلت على العجب وقال :

— انني أشعر كأنني اعرف هذا الاسم !

— من الممكن ان يكون اخي قد القاه عليك قبلاً !

— كلا . . لا . . اسمع ! لقد تذكرت . . كان ذلك في قرية البوريناج يوم ذهبت اليها اجمع المعلومات والملاحظات الضروريه لقصتي « جرمينال » . فقد قال لي عمال المناجم هناك ان رجلاً

•

بخب الصديقة – لتولوز لوتريك ١٨٦٤ - ١٩٠١

اما تولوز لوتريك فقد انفرد في الحانات ينقل الينا حقيقة روادها بأمان واخلاص ، دون تهذيب او تلطيف وقد كان واقعياً في مواضيعه واسلوبه مع شيء ضئيل من التعبيرية المحببة . ومهما قيل عن لاخلاقيته فهو دون شك واحد من الفنانين الذين آمنوا بفنهم دون ان يهتموا بالتربية وبتهذيب الاخلاق وتحسينها ، وهي امور لا تمت الى الفن بصلة ، لا من قريب ولا من بعيد وهو الذي ردد طيلة حياته «قيل كل ما تريد قوله» .

لاستاك - لسيزان ١٨٣٩ - ١٩٠٦

وقد ضاق الفنانون ذرعاً بهذه المواضيع التي اخذت تظهر بكثرة نظراً لكثرتها في الحياة ، فقامت فئة منهم تختار المناظر ذات الجمال الخاص اوالتمييز ، وسيزان واحد من الذين شرعوا يهتمون بالشكل والخطوط والاحجام واصبحت هذه الامور عنده في المكان الاول بعد ان حرر السابقون الفن من ربقة الموضوع ، ولم يعد للموضوع في اللوحة مكان مهم ظاهر ، وهذه اللوحة ترينا طلائع المدرسة التكعيبية التي عرفناها في القرن العشرين .

•

يشبه المسيح عاش معهم فأكل مما يأكلون ، ونام على مثل فرشهم ، وحاول ان يدخل الله الى قلوبهم ، فكانت النتيجة ان أخرجه المسؤولون من الكنيسه وخدمتها .

وقد كان ذلك الذي يشبه المسيح فنسنت فان كوه بالذات .

وقد أحدث كتاب «جرمينال» الانتقادي اربع ثورات واضرابات في مناجم فرنسا عقب ظهوره . وهو خير دليل على ما للواقعية من أثر في الشعب اذا عرف الفنان او الكاتب كيف يستعملها .

لم تتحكم الواقعية طويلاً في عالم الفن، اذ سريعاً ما عادت الى ثانويتها من جديد بعد ظهور المدرسة الانطباعية . وكان الفنان المخضرم مانيه هو الذي وصل بين المدرستين فكان من أتباع الواقعية ثم انتقل الى صفوف الانطباعية في اخريات ايامه .

لنتريث قليلاً ونلقي نظرة عامة على تطور الفن في النصف الاول من القرن التاسع عشر فنرى ان التطور شمل الموضوع اكثر من اي عنصر آخر من عناصر التصوير — وفي حالات عديدة — مواضيع الحوادث المعاصرة والأدب ثم المواضيع اليومية المألوفة والمناظر العادية ، ومناظر الطبيعة لا كموضوع ثانوي بل كموضوع مستقل مجرد . وسنرى بعد ان الموضوع لم يقف عند هذا الحد بل تعداه الى كل ما تقع عليه عين المرء بل الى اكثر من ذلك الى تمثيل السلام والامل وغيرهما وهي بوادر المدرسة الرمزية التي ازدهرت في اواخر الربع الاول من القرن العشرين .

ولا يعني هذا ان العنصرين الآخرين ظلا دون تطور ، فقد أضفى دلاكروا على لوحاته الواناً زاهية حارة مما قضى على الوان المدارس الكلاسية وبرودتها ، كما ان الرومانطية حورت الخطوط فجعلتها مرنة ، اقل صلابة ووضوحاً مما كانت عليه ايام دافيد واتباعه .

اما الشكل فلم يطرأ عليه تبدل محسوس بعد ؛ اذ انه كان الهدف الاول للتطورات الجريئة التي بدأت في الربع الاخير من القرن الماضي وبلغت اشدها في القرن العشرين في المدرسة التكعيبية ورفيقاتها .

الا ان المدرسة الكلاسية بكل عناصرها لم تمت، فقد بقيت في اعمال فنانين لا يقلون عن الرومانتيين بشيء، أمثال أنجر، وكورو في اوائل عهده . وقد بقيت ايضاً عند نفر من الفنانين الثانويين الذين يعدون في الواقع الاعداء الحقيقيين للمدارس التطورية الاخرى ، ومنهم بوجرو (Bouguereau) الذي اثار بجموده واصطناعيته حفيظة الفنانين الناشئين وغضبهم وحقدهم مما دفعهم الى ذلك التيار فجاروه ، ونفخوا فيه ، فثار واكتسح الفن فيما تبقى من سني القرن التاسع عشر ، وتابع اكتساحه لكل علم وفلسفة وادب حتى يومنا هذا .

وكان اول المتمردين الناشئين ادوارد مانيه الذي تأثر تأثراً كبيراً باعمال الاسبانيين وخصوصاً «ريبيرا» و« فلاسكيز »فنسج على منوالهم في بداية عهده . ولكنه سريعاً ما تأثر بالناشئين الآخرين امثال مونيه (Monet) وبيسارو (Pissaro) فانقلب الى صفوفهم وحاول مجاراتهم في فنهم الجديد فأحدث التصوير الواضح الجلي (Peinture claire) الذي يمتاز بتسرب النور الى الظل وانارته ، ومع ذلك فلم يكن يقدر على ان يلطف من صلابة خطوطه ووضوحها . وقد صور العرايا لا كما رأتهم عين من سبقه، بل كما كن في الواقع، في منازلهن وفي الحدائق فأثار اشمئزاز النظارة بحقيقتهن وواقعيتهن ، فكانت لوحتاه المشهورتان ، « الفطور على العشب » و«اوليمبيا » ، من اللوحات التي اثارت سخط الجمهور

وثورته ، وغضب النقاد . مما اضطر اولي الامر يوم عرضهما الى استخدام القوة المسلحة في حمايتها من تلك الثورة العابرة . وجدير بنا ان نذكر في الوقت ذاته قصة غستاف فلوبير المشهورة — مدام بوفاري — اذ ان المسؤولين منعوا انتشارها وتداولها فظلت حقبة من الزمن مختفية يتناولها القراء سراً وفي الخفاء . وقد وجهوا ضدها السبب نفسه الذي وجهوه الى مانيه — قلة الاخلاق وتحديها والدعوة الى الاباحية والانطلاق من الآداب الاجتماعية المعروفة — وكان اميل زولا حينئذ المناصر الاول لمانيه ، وقد نشر بعد ذلك بسنوات قصته الكبرى « نانا » فانهالت عليه لعنة الرجعيين الكلاسيين والرومانطيين اذ ان كلاً منهما انضوى تحت اسم شامل واحد — الاكاديميين .

وظهر في ذلك الوقت فنان آخر ، كان « كنتاً » هجر النبل وزخارفه قائلاً كلمته الصادقة — لماذا يكون الانسان كنتاً اذا كان باستطاعته ان يصبح رساماً — وكان غنياً مسرفاً في ماله ، واعرج ، يعيد الى ذاكرتنا الشاعر الانكليزي بايرون ؛ امضى كل حياته في حانات باريس ، ومقاهيها فرسم الطاحونة الحمراء وفتياتها ، والراقصين والراقصات ، والشاربين والشاربات وكل ما يتعلق بأولئك وهؤلاء . مما اكسبه لقب الفاسق في الفن والرجل العديم الاخلاق .

وجلس زولا الى هنري تولوز دي لوتريك (Lautrec) هذا يشرح له الاخلاق في الفن فقال :

« ينعتون كتبي باللاخلاقية كما ينعتون لوحاتك ايضاً يا هنري ، والجمهور لا يستطيع ان يدرك ان ليس للاخلاق مكان في الفن . فالفن لا اخلاقي وكذلك الحياة . والعامة من الناس يفكرون تفكيراً ثنائياً — النور والظل ، الحلاوة والمرارة ، الخير والشر — ولكن هذه الثنائية ليست في الطبيعة ولا هي منها في شيء ، فلا هنالك خير ولا شر وكل ما الطبيعة وجود وعمل . فاذا ما وصفنا عملاً ما فانما نصف في الوقت عينه الحياة ، ولكننا حين نطلق على ذلك الفعل اسماً او وصفاً — كدنيء مثلا او شرير — فانما نحن ندخل بذلك مجال التحامل الشخصي » .

وهذه العصبة من الفنانين ومعهم سيزان هم المؤسسون لمعظم المدارس التي تبعت الواقعية — المدرسة الانطباعية ، وما بعدها .

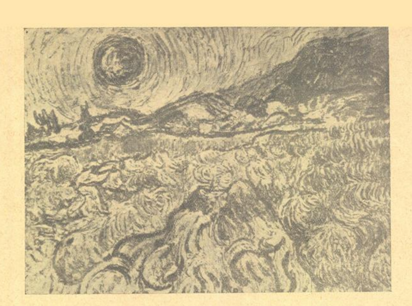
وسوف لا احدثكم عن الانطباعية لانكم سمعتم ذلك من الاستاذ الانسي ، وهي موضوع حديثه . ولكنني اريد ان أنوه ان الموضوع في الفن قد تحرر تحرراً تاماً ، وبذلك اصبح الفنان بحل من ذلك القيد القديم فولى كل اهتمامه الى العناصر الاخرى اذ صار له الوقت الكافي لخوض غمار تطورات جديدة تناولت اللون والخطوط والاشكال . فالانطباعية مدرسة تبحث في اللون اكثر من اي شيء آخر . وقد غالت في ذلك حتى تصدى لها جورج سورا (Seurat) فاراد ان يجعل من فن التصوير علماً يخضع للعقل كالعلوم الاخرى . فأخذ يبني لوحاته حسب تصاميم ونظريات علمية مستحدثة ويقسم الالوان الى نقط وقطع صغيرة لكنها زاهية صافية غير ممزوجة . وبذلك أنشأ المدرسة التي نعرفها اليوم بالمدرسة النقطية (Pointillism) وكان من حملة لوائها فيما بعد الفنان بول سينياك (Signac) ، وقد اوضح سورا اسس مدرسته هذه في كتيب صغير تحدث فيه عن الخطوط والالوان وأثرهما في العواطف .

واخذ كل من سيزان وكوغان (Gauguin) وفان كوخ (Van Gogh) وهم الفنانون الثلاثة الذين اغنوا الفن باعمالهم وآرائهم ، اخذ كل منهم يقوم بتجاربه الخاصة مناهضاً للانطباعية المغالية ومحبذيها ، فرأينا (Cézanne) يحور الشكل ويبدله ثم يقدم نظريته عنه وهي : ان كل شيء في الطبيعة مؤلف من اشكال كروية او انبوبية (Cylinder) او قمعية (Conical) . وبذلك وضع اسس المدرسة التكعيبية التي اشتهر من اتباعها بيكاسو وبراك ، وقد ولى سيزان اهتمامه نحو الالوان محاولاً ان يستحدث تراكيب محكمة منسقة جميلة للاشياء ؛ بغض النظر عن الناحية التي ينظر منها اليها ، وقد قال : اذا ما اعطى اللون كل زهائه وغناه ، يتم بذلك الشكل ويكتمل به .

وغالى كوغان في الزينة والتنميق وانكمش على نفسه متقهقراً الى البدائية البشرية الاولى ، وقد اندفع في اتجاهه هذا اندفاعاً حمله على ترك اهله ووطنه والالتجاء الى البدائيين الاول من سكان جزر تاهيتي والموكيزاس وقد كان مغرماً بالالوان الى حد المغالاة ، يكره تقسيمها وتجزأتها (على الطريقة الانطباعية والنقطية) ويختار من الطبيعة الوانها الصافية البراقة . فقد قال يشرح مبدأه في التلوين :

« ان مساحة متر من اللون الاخضر ليبدو اكثر اخضراراً من مساحة سنتمتر واحد اذا كنت ترغب في التعبير عن اللون الاخضر . . كيف تبدو لك تلك الشجرة ؟ أهي خضراء ؟ اذا استعمل اللون الاخضر ، اكثر الالوان التي تحملها على ملونتك اخضراراً . وذلك الظل ؟ اتبدو لك في طياته مسحة زرقاء ؟ لا عليك ، صوره بأكثر الالوان التي تستطيعها ازرقاقاً . »

وهكذا كان في فنه محباً لقطع واسعة من الالوان ينمق بها اللوحة ويرتبها ويؤلفها تأليفاً جميلاً رائعاً .



الحصاد – لفان كوه ١٨٥٣ – ١٨٩٠

اما فان كوه فقد اندفع وراء التعبير اكثر من الشكل ، فاستخدم الالوان والخطوط والاشكال كلها في تحقيق غايته هذه ، فلم يحجم عن تشويه وجه ما او وضع الاشياء في مواضع متغايرة مختلفة اذا كان يستطيع بذلك ان يعبر عما يحدثه فيه الموضوع من شعور يرغب في نقله الى الآخرين . وهذه اللوحة ترينا اندفاعه وراء الحركة والحرارة وحبه للشمس وقوتها وهي احدى محاولاته في التعبير عن دوران الشمس ونمو الزرع وامتزاج الاثنين في بوتقة واحدة من القوة والحياة الزاخرة العامرة

وقد عاصره فان كوه ، وخير وصف لفنه هذه الكلمات التي قالها بنفسه : « إنني إن صورت الشمس اردتها ان تحدث في الناظر شعوراً بالحركة والحرارة والدوران ، واذا صورت شجرة ما اردتها ان تثير فيه الشعور بقوة النمو والتطور . » وكان انسانياً في مواضيعه محباً للعمال وحياتهم وللفلاحين ، وقد صورهم في لوحات كثيرة كما صور حقول القمح في وهج الشمس المحرق واشجار السرو وغيرها . . وقد أضفى على صوره حركة وحرارة لا نراهما عند غيره من الفنانين .

وقد جعل النقاد هؤلاء الفنانين وكثيراً غيرهم في مدرسة عامة اطلقوا عليها اسم « مدرسة الوحوش » (Les Fauves) ومنهم من يسميهم « بالتعبيريين » « وما بعد الانطباعيين » وما شابهها . . .

هنالك مدارس ثانوية اخرى ليس لها مجد سوى تكتل أفرادها كما ان هنالك فنانين آخرين لم اذكرهم في حديثي إما لأنهم من اتباع الانطباعية وقد شملهم الحديث السابق – امثال ديجاس ، ورينوار وغيرهما – او انهم يمتون الى القرن العشرين اكثر منهم الى القرن التاسع عشر ، وسيشملهم الحديث القادم – امثال ماتيس ، وبونارد ، وروسو ، وبيكاسو .

وهنالك فنان آخر عاش في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن الماضي دون ان يكون له مكان مباشر في هذه السلسلة من الفنانين الفرنسيين الا انه في الواقع خير من تأثر بالثورة الفرنسية الكبرى وأصلح من نتخذه مثالاً لاستهزاء طبقة الشعب بالطبقة المالكة الحاكمة والسخرية بها . ذلك الفنان هو غويا (Goya) الاسباني المتمرد والرومانطي الساخر اللاذع الذي قيل عنه انه حذق ثلاثة امور : التصوير بالالوان ، والمنازلة بالسيف ، ومغازلة النساء . وقد لاحقته السلطة من بلد الى بلد حتى طردته من اسبانيا فالتجأ الى فرنسا ومات فيها . وهو نسيج وحده في الفن ، ذو موضوع انتقادي اجتماعي حساس ومن احسن صوره : الاعدام ، والاسرة المالكة ، ومصارعة الثيران .

***

واذا ما اردت ان اجمل الفن في القرن التاسع عشر بكلمة واحدة ، اصف بها كما وصف العلماء الاسلام بالتوحيد والمسيحية بالحب ، فلا أجد خيراً من كلمة – ثورة . . .

عبد الرحمن باده

عشرة جنيهات

بقلم محمد صدقي كبه

☆

عندما رأيت امي لاول مرة .. كان ذلك في رسمها الذي قدمته لي عمتي « ام السعد .» وهي تسكب كلماتها الحبيبة في اذني ، قائلة لي في صوت خافت حنون .. : هذه هي امك يا رشاد .. التي اسلمتك امانة في عنقي ، لاسهر على رعايتك وأشد ازرك كلما قسا عليك صراع الحياة .

لقد فتحت انت عينيك على نور الدنيا في اللحظة نفسها التي انتقلت هي فيها الى لقاء الله بعد ان سبقها ابوك المسكين في تيار الحمى التي اجتاحت البلد في أيام ..

***

وقد رأيت امي بعد ذلك مرات .. مرات عديدة في تلك الصورة التي كانت تحتفظ بها عمتي في خزانة الثياب . ولكنني اقول لك الحق .. لم أحس نحوها في يوم ما من الايام بمثل هذا الحب المقدس العميق الذي كنت أكنه لعمتي ام السعد .

***

وعمتي ام السعد هذه .. هي الانسان الاول ، الخالد في عمري .. او الكلمة الاولى التي تبتدىء بها سطور حياتي .. اذا حدثتك صراحة يا سيدي عن ايامي في الحياة .

فقد نشأت في مطلع صباي طفلاً تافهاً مضيعاً ، شأن كل الاطفال الذين يستقبلون الايام الاولى من حياتهم وهم ايتام .

ولهذا فقد اضطرت المسكينة الى ان تضيف على المهنة التي كانت تعيش منها ... مهنة غسل الثياب ، مهنة اخرى هي تربية الاطفال .

كانت حتى يومها ذاك عانساً لم تتزوج . ولهذا فقد كانت تدفع بي الى احدى جاراتها لترضعني ،مقابل غسل ثيابها مجاناً .

***

ولم يكن هذا هو كل ما كنت أسببه لعمتي ام السعد من متاعب . وانما كانت هي بداية الاهوال التي ذاقتها في سبيل تربيتي ، وشد يدي على صراع الحياة .

فقد استطاعت عمتي اخيراً ان تضيف اسمي الى مجموعة التلاميذ في احدى المدارس الاهلية التي كانت تضم اشتاتاً من ابناء الناس الذين كانوا يتحدثون دائماً امامي عن اشياء كثيرة ، افتقدتها من دنياي .. اشياء كنت لا اعرف عنها الا انها متع يقدمها لهم آباؤهم ، تتصل بالمأكل والمشرب والملبس ، وضروب اللعب والتسلية في اوقات الفراغ .

***

قصة

وكما كان انتظامي في المدرسة يكلف عمتي جهداً جباراً من العمل .. الذي كانت تستطيع بواسطته ان تدفع لي نفقات الدراسة ، فقد كنت انا الآخر اتكلف جهداً كبيراً بالنسبة لما كنت



أصبر عليه من متاعب صباي .

كان زملائي في المدرسة يجدون متعة كبيرة بتذكيري بمهنة عمتي في خدمة البيوت وغسل الثياب .

فقد كانت لا تعرض لهم فرصة للتندر علي الا وأصابوا مني جانباً يؤلم نفسي اشد الالم ، حتى لقد كنت أبغض الحضور الى المدرسة ، بل لقد كنت اذهب اليها كل صباح وأنا اشعر بشعور الانسان الذي يذهب الى مكان تعقد له فيه محاكمة على جريمة اقترفها . واية جريمة هي اكبر من الفقر والانتماء الى احدى الطبقات المنحطة يا سيدي؟

انه كان يكفي ان يوبخ ضابط المدرسة تلميذاً على قذارة حذائه او بقعة حبر في قميصه لينظر هذا التلميذ الي هو وسائر التلاميذ في شيء من الفضول ، كأنما يصبون على شخصي مسئولية هذا الامر الذي لا علاقة لي به سوى فهمهم انني وعمتي مسئولان عن نظافة ملابسهم وابدانهم ، بل وعقولهم ايضاً ، لاننا من طبقة اقل مستوى منهم في المعيشة ، وحظاً من الشعور بنعمة الحياة .. التي يتكرمون علينا فيها بهذا القسط الضئيل .

***

انني لا أنسى يا سيدي ابداً كيف كان رفقائي الاشقياء ينتظرونني دائماً في كل منحنى من منحنيات الازقة التي تبلغ بي الى المنزل ليلقوا بي وبكتبي في اوحال الطريق ، بعد ان يمزقوا منها صفحة الدرس الاخير التي كتب لي فيها مدرس اللغة الاجنبية كلمة — جيد او ممتاز — :

ان سوء التغذية يا سيدي ، هذا المرض المزمن الذي رافقني طيلة أيام حياتي كان خير معوان لهؤلاء الملاعين في مقدرتهم على ايذائي ودفن اعضائي النحيلة في أقذار الطريق كلما فشلت في الهرب من لقائهم الموعود .

***

ولكن صبراً .. صبراً يا سيدي قليلاً على أيامي . ان كبرياء حيرتي المستغرقة كانت تفزع في صدري ثائرة على هذه المهانة التي كنت أعيش متقلباً فوق جمرها في المنزل والطريق والمدرسة .

في المنزل كلما أخذت عمتي ام السعد ، تفري اعصابها المرهقة في غسل ملابس الناس ليل نهار تسجن أنفاسي معها في حجرتنا الوحيدة الضيقة مع رائحة الصابون والماء الساخن ... تطوى نفسي من مهانة الذل لهذا اللون من الحياة الذي فرض علينا ..

لاننا — كما افهمتني اكثر من مرة — لا نستطيع قط ان ننال من حقوقنا في هذه الحياة الا هذا القدر الضئيل مما يشبه عيشة الانسان .

نعم ! ان كبرياء حيرتي الذليلة كانت ابداً تثور بين جنبي وهي تغلي غليان المرجل كلما اخذ زملائي يتندرون بسوء حياتي ، ومهنة عمتي التي تقاسي كثيراً من الوان العذاب حتى استطيع ان آخذ حظي من التعليم والجلوس معهم في وصف واحد فلا احرم من نعمة التعليم ، كما حرمت قبلاً من نعمة الابوة والمآكل والمشرب والملبس التي كان يرتع في سعادتها سائر زملائي الآخرين .

***

انك لا تدرك يا سيدي .. كم جاهدت المصاعب والاهوال عندما بدأت اشق طريقي في الحياة اعزل من اسلحة المجتمع الكاملة التي يزود بها افراده ليتمتعوا بحقوقهم في الحياة .

لقد اشتغلت كاتباً في مصنع أحذية .. ثم بائعاً في مخزن ادوية ثم ملاحظاً في احدى شركات النقل ، ثم مساعداً لاحد سماسرة القطن ثم دليلاً في احدى صالات العرض السينمائي . وبين كل عمل وآخر من هذه الاعمال .. كنت اتعطل بضعة ايام اعرف فيها قسوة الفقر المفزعة لا عن طريق معدتي فقط .. ولكن عن طريق نظرات السعداء الشزراء لي كلما نقلت البصر بين واحد منهم وآخر .

***

وهكذا يا سيدي .. عشت اياماً طويلة مديدة من حياتي المضيعة .. وانساناً تافهاً مغموراً احس ان بيني وبين الحياة صراعاً هائلاً كل اسلحتي فيه هي دفن الالم العميق في اغوار نفسي ، وتهدئة الثورة بين حنايا صدري ، والتمسك باهداب الصبر الممل ، حتى لم يبق لدى من قوس الصبر منزع .

ففي ذات ليلة من ليالي شتاء هذا العام .. لم تستطع عمتي ان تغمض لها جفناً من وقدة ما الم بها من ألم شديد في جانبها الايسر الذي أخذت آلامه تشتد عليها يوماً بعد يوم .

نعم . في تلك الليلة التي لا أنساها ما حييت .. قالت لي عمتي وهي تعلق نظراتها بي مستعطفة في امل كبير .

« انه لا بد من عمل شيء ما .. يا رشاد .. يخفف عني حدة هذه الآلام التي تكاد تقتلني .. »

***

وقد ذكرت لك يا سيدي .. انني كنت أحب عمتي ام السعد حباً مقدساً عميقاً لا يبلغه حب شيء آخر في الحياة . ولهذا فما كادت تشرق شمس الصباح حتى جمعت ما ضمت حجرتنا الضيقة من كل ما يمكن ان يسمى أثاثاً وذهبت به الى بائعي الاثاث القديم .. الذي سلمني بدله جنيهين انطلقت بهما مسرعاً الى اقرب طبيب في ناحيتنا ، وشرحت له ما تشكو منه عمتي . ثم انطلقنا معاً الى المنزل .. وقد أخذت أنفاسي تتواثب مسرعة تواثب دقات قلبي ..

***

وانتهى الطبيب من فحص عمتي .. انتهى يا سيدي . ثم رفع رأسه الي وازاح نظارته الطبية عن عينيه وهو يقول :

– انها تحتاج الى عملية جراحية في الحال ، حتى لا يتعرض دمها للتسمم .. بسبب هذا الانتفاخ الذي يتجمع بجانب القلب ..

فقلت له وانا مضطرب الانفاس : حسناً ، اسرع يا دكتور ! حتى تخفف عنها حدة هذه الآلام التي تكاد تقضي عليها .. ولكنه وضع سماعته بكل هدوء في حقيبته الجلدية وهو يقول لي ببساطة :

– هذه مسألة بسيطة .. تكلفك عشرة جنيهات لا غير .

***

وتصور يا سيدي .. عشرة جنيهات مصرية . مسألة بسيطة بالنسبة الي .. ؟ تصور .. عشرة جنيهات ..

ان هذا الطبيب . سامحه الله ! لعله كان يظن بي شر الظنون فيعتقد انني احد اللصوص الذين يتحصلون على المال الكثير بايسر الطرق ، او انه كان يفكر بعقلية السعداء اصحاب الجيوب المنتفخة ، والجيوب المكتظة الذين لا يحسون بما يقاسيه امثالنا نحن جماهير الشعب من الفقر والجوع والحرمان ، او انه كان جزاراً بشرياً يتخذ من مهنته الانسانية فرصة انتهازية ينهب بها ما لا يستحقه .

ولكن .. لا .. لا يا سيدي . انه بريء من هذا ، انني انا المخطىء . انني انا المخطىء ... لانني اعتقدت انني من طينة هؤلاء الآدميين الذين لهم الحق وحدهم باستدعاء الطبيب لمعالجة مرضاهم .. ولكن . لا . لا . ابداً يا سيدي .. ان هذا الطبيب لم يكن يستحق مني اقل مما حدث له . انني حين بسطت له حالتي السيئة ، والاستحالة المادية التي لا تمكنني من دفع مبلغ العشرة الجنيهات ، سخر باستعطافي ورجاء عمتي في فراشها .. ورمى لي بالجنيهين اللذين بعت بهما اثاث حجرتنا ، وتناول حقيبته الجلدية وابتدأ يخطو باشمئزاز مغادراً الدار .

***

تصور يا سيدي . هذا الطبيب الذي يؤدي للمجتمع رسالة انسانية يتغنى بها الناس من كل مكان .. تستنجد به ليمد لك يد المساعدة ، فيترك احب الناس اليك في اخطر لحظات عمره معلقاً بين الحياة والموت بحبل رفيع جداً هو مروءته الانسانية المعدومة التي يستمد وحيها من خسته وطمعه وجشعه .. وتصور شعوري المضطرب ، والاحاسيس التي كانت تربط اعصابي بما حدث ، حين وجدت يدي تندفع مسرعة الى سكين كانت ملقاة بجواري على الارض ، فأسرع خلفه وهو يجتاز باب الحجرة واغمدها في ظهره ..

تصور هذا يا سيدي القاضي ، ثم احكم علي بما يرضي ضميرك انت ، لا بما ترسمه مواد هذا القانون الذي قد يكون بالنسبة الي فيه شيء من الجمود الذي لا يكيف الدوافع والاغراض والنتائج .

احكم علي بما يرضي ضميرك يا سيدي فقط ، متذكراً انني واحد من قطيع الملايين الذين عاشوا لاخطاء غيرهم في الدنيا عيشة التافهين المضيعين .

انني يا سيدي القاضي ، اضع حياتي رهينة في عنقك بعد حياة عمتي التي ضحى بها المجتمع القاسي ، بعد ان ضحى كذلك بأبي في تيار الحمى وامي في عسر الولادة . وانا أومن يا سيدي انني بريء بريء لان ما فعلته لا يعد شيئاً مذكوراً ازاء ما يوقعه المجتمع يومياً ضد امثالي المساكين من جرائم اجماعية ، مسلحة بقوة الظلم العنيف الصارخ الذي يطبق بالجملة ضد امثالنا المستضعفين .

لقد قتلته يا سيدي ، لانني لم استطع ان اتركه يخرج وعمتي تموت وهي في حاجة الى مساعدته .

***

وتداعى المتهم منهوك القوى في قفصه الحديدي .. بعد هذه المرافعة الطويلة . وتشاورت هيئة المحكمة في لحظة قصيرة جداً ، ثم صدر الحكم في كلمات قلائل ايضاً .. كما يصدر كل مرة .. وكما سوف يصدر ما دام للمعذبين في الارض نفوس ترضى بالهوان ..

محمد صدقي كبه — دمنهور — مصر

للدكتور عبد السلام العجيلي

الرقة – سوريا

المجاهدون

لبيك يا داعي الفدا
إنا جعلنا الموعدا
للملتقى حوض الردى
نحن كماة العرب ، بيت المقدس
نفديه في يوم اللقـا بالانفس
اسمع صهيل الخيل طـي الغلس
من فوقها الفرسان يطوون المدى
لبيك يا داعي الفدا
انا جعلنا الموعدا
للملتقى حوض الردى
ايه فلسطين اتينـا والدم
نذر علينا ان تراه اللمم
ضجت بوادينا بنا والقمم
لن تذهبي يا صيحة الحق سدى
لبيك يا داعي الفدا
انا جعلنا الموعدا
للملتقى حوض الردى
ودعت امي حين جزت المنحنى
ان قدّر الله ولم ارجع هنا
امـاه ، لا تبكي علي فأنا
د صنت امي الارض من كيد العدا
لبيك يا داعي الفدا
انا جعلنا الموعدا
للملتقى حوض الردى

في الليلة الغائمة

أيا نجمة في صفحة الافق وحدها
تبث أساهـا للغيوم ووجدها
سهرت على وعد ، سراب من المنى
فهل تسهرين الليل ترجين وعدها
اريقي السنا يا أخت علّ شعاعة
تطوف بثواهـا فتمسح خدها
وتشكو لها طول الليالي وهمنا
ووحشتنا في ظلمة الليل بعدها
اذا بسمت يا اخت بددت الدجى
فـلا هم يعرونا ولا غيم عندها
على شفتيهـا ذوب الفجر نوره
كمـا ذبحت تلك الخميلة وردها
وأغفى على اهدابهـا الشوق حالماً
ورف فأذكى في الجوانح وقدها
فلا تعجبي لليل ان طـال لبثه
فليلك يهواها وقد بات عبدها
يذيب بأثنـاء الذوائب لونه
واحلامه الولهى تعانق قدهـا
ولا ترقبي منه حنـاناً فانـه
ليسمع شكوانا ويلمح صدهـا
ولا تختفي لم تبق لي غير ومضة
من النور اخشى ان نواريت فقدها
ايا نجمة في صفحة الافق وحدها
تبث اساهـا للغيوم ووجدها

عالم بشق طريقه

جريجور مندل

بقلم وديع فلسطين

☆

كثيراً ما يقال بمسمع منا ان طفلاً يشبه أباه او أمه ، وان لون عينيه مماثل للون عيني والده، او ان ذقنه كذقن والدته ، أو انه قصير القامة كجده مثلاً . ومثل هذه الملاحظات تدل على أن المتكلم يرى ان بضع صفات جسدية يتوارثها الابن عن أبيه ويورثها الجيل الحاضر للجيل القادم .

وقد كانت الوراثة موضوعاً اجتذب اهتمام راهب نمسوي يدعى جريجور مندل ، وقد وقف حياته على دراستها حتى باتت جميع المعلومات التي نعرفها اليوم عن هذا الموضوع يرجع الفضل الاول فيها اليه .

ولد جريجور جوهان مندل عام ١٨٢٢ من أب يدعى انطون مندل يمتلك ضيعة في قرية . ولبث أبوه يعمل في الجيش ثماني سنين سُرّح بعدها فعاد الى أرضه يعنى بتحسين زرعها وزيادة انتاجها .

وشغف الاب بوجه خاص بزراعة الفاكهة، ومن ثم اخذ يقطع النهار في بستانه يتفقد غرسه ويشرف على نمو اغصانه ، ويعمل على تحسين انتاج شجره بان ينقل فرعاً جيداً من شجرة ثابتة الاصول الى شجرة اخرى ، وهي العملية التي يسمونها « التطعيم ». وكان الابن جريجور يصحب والده في مزارعه ، ويعاونه في عمله حتى انتقل حب الزرع من أبيه اليه .

وكان في مدينة «برون» متنسك للرهبان ألحقت به حديقة، فاستهوى الدير جريجور مندل، واستبدت به رغبة في الالتحاق به . . وهي رغبة ظلت معتصمة به حتى نهاية عمره .

التحق جريجور مندل في مستهل حياته بمدرسة قروية ، وكان ناظرها استاذاً ذا كفاءة وان كان هذا أمراً غير مألوف في معاهد الريف. فحبب الناظر الى مندل مهمة مواصلة الدرس بعد التخرج في المدرسة ، وأبى ان يعود الى الحقل كسائر ابناء الفلاحين .

ولما كانت امه تروم ان ترى ابنها رجلاً مرموقاً يتطلعون اليه في المجتمعات، مدت له يد المعونة ، وأيدته في رغبته تأييداً مطلقاً . اما أبوه فكان يود ان يخلف لابنه مزرعة جيدة ، وقد عمل على تحقيق هذه الامنية ، ولكنه رأى ان المزيد من العلم قد يتيح لجريجور مجالاً في الحياة واسعاً وعملاً يدر عليه الوفير من الربح . فلما بلغ الحادية عشرة من عمره ، بعث به والداه الى مدرسة في مدينة تبعد ثلاثة عشر ميلاً عن قريته. وبعد عامين ألحقاه بمدرسة أعلى منها مرتبة ، مكث فيها حتى بلغ الثامنة عشرة .

ولكن حياته لم تخل من عقبات اعترضت سبيل تهذيبه . فقد اكتنفت والديه صعوبة تدبير المال الكافي لاداء نفقات تعليمه ولا سيما بعدما انفقا معظم ما ادخراه في اصلاح مزرعتهما . وجرى ابواه ، اثناء تلقيه دروسه في معهده ، على ان يرسلا اليه شيئاً من الطعام وان كانت قلته تسبب له جوعاً ، ومضت عليه ايام أمضاها صائماً ، فلزمه في العطلة السنوية ان يكد ويعمل مساعداً لابيه .

وفي عام ١٨٣٨ — وكان جريجور في السادسة عشرة — اصيب والده بحادث اصابة شديدة، فتكسرت عظام صدره بسبب سقوط جذع شجرة ضخم عليه فاضطر الى الانتجاع الى الراحة مؤثراً عدم العمل في فلاحة حقله . ولم يجد بداً من ان يبيع ضيعته لزوج ابنته مكتفياً بمعاش شهري متواضع . فكان على مندل الصبي ان يجد في البحث عن عمل يكتسب منه ليستطيع اداء نفقات الدرس ، فاضطر الى تنظيم دروس خاصة لبعض الطلاب ، ولكن صحته لم تستطع احتمال عبء الدراسة والتدريس في آن ، وعاجله مرض كربه مدة من الزمان ، بيد انه استطاع ان يكافحه ويكافح الموت حتى برىء وغادر معهده عام ١٨٤٠ .

وعن لمندل ان يدرس الفلسفة عامين ، فلم يستطع تحقيق بغيته الا بمعونة مالية سخية جادت له بها شقيقته الصغرى تريزا ، فقد نزلت له عن نصيبها في مزرعة الاسرة ، وتسنى لاخيها ان ينهض بأعباء الدراسة في المعهد الفلسفي . ولم ينس قط دينه هذا لشقيقته، وقد رده لها حباً عميقاً دام يختلج في صدره حتى نهاية عمره ، ووداً مصوغاً في قالب رعاية وعناية اسبغها على ابنائها الثلاثة .

وبعدما تخرج مندل في المعهد الفلسفي، عاد الى الاشتغال بالتدريس الخاص، فوقع للمرة الثانية فريسة للداء، ولذلك عول بعد ما برأ على ان يهتدي الى عمل اقل عناء يجلب له دخلاً منتظماً ويعفيه من عبء التفكير في شؤون المال، فسعى يطلب مشورة رجل له به معرفة والمام، يدعى الاستاذ فرانز. وكان الاستاذ فرانز قد تلقى قبيل ذلك رجاء بان يرشح شباناً للالتحاق بدير في «برون» ليصبحوا مترهبين. فاقترح اسم مندل، وفي اكتوبر من عام ١٨٤٣ التحق الفتى بالدير.

وكان دير القديس توما في برون مؤلفاً من مبنى كبير له عدة ساحات، وكان كعبة للعلم في المنطقة كلها، يؤمه الطلاب كأنه جامعة يستقون منها عذب المعارف ولذاذات العلوم. وأمضى مندل في هذا المنسك زهاء نصف قرن (بين عامي ١٨٤٣ و١٨٨٤) استطاع خلاله ان ينشر على الملأ كشوفه الكبيرة الشأن، وان كان التقدير العام لم يصبه الا بعد منيته.

وفي العام الاول الذي امضاه في الدير، تلقى العالم الشاب دروساً منتظمة، وكان يزجي اوقات فراغه في الحديقة التابعة للدير وفي البحث عن المعادن، ولم يكن حتى هذه المرحلة من عمره قد تلقى دروساً علمية صحيحة. ولم يزد على ان يعمل في الدير كبستاني شغوف بالزهر والفاكهة مستعيناً بزملائه الرهبان من الذين تزيد معارفهم في علم النبات على معارفه.

وفي عام ١٨٤٥، شرع مندل يتلقى دروساً في اللاهوت مدة اربع سنين ثم عين مدرساً في معهد عال يختص بتدريس اللغة اليونانية والرياضيات نهاراً ويمضي لياليه في الصومعة. وقد اصاب في مهنة التدريس نجاحاً مطرداً واحبه طلابه وزملاؤه من المدرسين حتى جاء عام ١٨٥٠ فتقدم لامتحان المدارس العليا في التاريخ الطبيعي وعلم الطبيعة ليظفر باجازة علمية تؤهله لان يغدو بقية عمره ناظراً لمدرسة بعيداً عن الدير. ولكن معلومات مندل كانت جميعها مستقاة من تهذيبه الذاتي، وهذا الامتحان لا يدخله الا الذين أمضوا بضع سنين في الجامعة، فرسب في الامتحان وتبين من اجاباته انه ما كان في وسع اي مصحح ان يعمل على انجاحه. وقال الممتحنون في تقريرهم انهم يرون من الضروري الاعتراف بان مندل غير كفء لتدريس علم الطبيعة في المعاهد المتوسطة.

ولا ريب في ان سخط مندل كان عظيماً، ولكن حبه للتدريس ظل ينمو ويزدهر وعاونه الاب «نب» – وكان اذ ذاك مشرفاً على الدير – على الالتحاق بجامعة (فينا) مدة عامين لدراسة العلوم، وكان بين الحين والحين يترك (فينا) ليزور داره القديمة.

وفي عام ١٨٥٢ فتحت مدرسة برون الحديثة، وفي العام التالي عاد مندل الى برون وعين مدرساً للعلوم فيها. ومكث عضواً في هيئة التدريس فيها اربعة عشر عاماً زاد في اثنائها عدد الطلاب الى نحو الف طالب. وكانت هذه الفترة كذلك من اسعد اوقات حياته واكثرها توفيقاً ونجاحاً.

ولا ريب في ان مندل ولد ليكون مدرساً، وقد وصفه معاصروه بأنه رجل عملي موفق يستطيع ان يجلو لطلابه ما يشاء من النظريات متوسلاً بأيسر ادوات المختبرات المدرسية.

وفي خلال هذه السنوات انجز اعماله العظيمة الخاصة بالوراثة. وسعى مرة ثانية لاجتياز الامتحان الرسمي للمدرسين في جامعة (فينا)، ولكنه اخفق.

اما ابحاثه الخـاصة بالوراثة، فقد أجريت بين عامي ١٨٥٦ و١٨٧١. ويبدو ان الدافع له على اجراء هذه الابحاث انه كان يعنى في داره بتربية فيران أليفة، وانه لا بد قد لاحظ ان الوانها تتفاوت جيلاً بعد جيل. فبدأ يدرس الوراثة ويجري تجارب عليها مبتدئاً بنبات البازلاء لانه من الوفرة بحيث يستطاع الاستعـانة بمقادير منه كبيرة استكمالاً لنتـائج الدرس واستثباتاً من صحة التجارب. وعلى كل، فقد كانت ميوله تجنح الى علم النبات اكثر منها الى علم الحيوان ولا سيما لانه تدرب من قبل على تلقيح الزهر.

وسبق مندل عدد من العلـماء الذين أجروا عدداً قليلاً من التجارب على الوراثة، وكانت نتائجهم مشابهة لنتائجه، غير انهم جميعاً لم يؤتوا الصبر والجلد ليجروا مثل ما أجراه من تجارب كبيرة العدد تمكنه من ان يضع نظرية عامة في الوراثة. فقد كان مندل في هذا المضمار اسبق الجميع. ويبدو ان انصرافه الى اجراء ابحاثه اعواماً طوالاً يدل على انه كان يتوقع نتائج لها شأن بعيد.

وحاول العلماء الذين سبقوا مندل في بحث الوراثة ان يدرسوا جميع خصائص الذكر والانثى وجميع خصائص النسـل ويقابلوا بينها. وكانت النتائج التي حققوها من ابحاثهم معقدة جداً حتى ليعسر فهمها لا نطوائها على عدد لا يحصى من الخصائص وكل ما استطاع العلماء قوله هو ان للنسل خصائص مؤلفة بالتساوي من خصائص الذكر وخصائص الانثى اللذين انتجا هذا النسل، او ان صفات احد الوالدين تطغى على صفات الآخر.

وقد احرز مندل اول ظفر له في هذا المجال بأن حصر عمله في زوج واحد متقابل من الخصائص.. كالقصر والطول مثلاً،

وعثر على ازواج كثيرة من مثل هذه الصفات متمثلة في نباتات البازلاء النامية في حديقة الدير في برون لاستخدامها طعاماً لزملائه، فقد تبين ان ارتفاع النبات قد يبلغ ست اقدام وقد لا يتجاوز احياناً ١٨ بوصة ، ولاحظ ان الزهر قد يكون ذا لون خاص ، او قد يكون أبيض اللون ؛ ورأى ان قرون البذور قد تكون قليلة التجاعيد او كثيرتها ، وان البذور قد تكون صفراء اللون او خضراء . . وهكذا .

وكانت تجارب مندل على البازلاء تقتصر على تشريح الزهرة الصغيرة وازالة اعضاء التذكير منها بوساطة ملقط خاص . ووضع مادة تلقيح مستقاة من زهرة اخرى على عضو التأنيث بفرجون مصنوع من شعر الجمل . ثم يربط الزهر في حقيبة صغيرة من الورق حتى يكون بمنأى عن الحشرات . وتجمع الحبوب الناجمة عن هذا التلقيح وتزرع في الربيع التالي . وقد استمر مندل يجري تجاربه هذه بعناية كبيرة على بضع مئات من الزهر .

اما النتيجة التي حققها ، فهي النتيجة التي نألفها اليوم جيداً . فلما لقح نباتين احدهما طويل والآخر قصير ، كان ارتفاع النبات الناتج عن هذا اللقاح معادلاً لارتفاع النبات الطويل . وتبين مندل انه لا يهم كثيراً سواء اخذ اللقاح من نبات طويل او من آخر قصير ، وتبين كذلك ان النباتات الناجمة عن تلقيح نبات ذي زهر ابيض بنبات ملون الزهر تحمل جميعها ازهاراً ملونة . . وهكذا مضى مندل يواصل بحثه صفة بعد صفة ، وخاصة بعد خاصة حتى أتى عليها جميعاً . ووصف هذه النتائج قائلاً ان بعض الصفات (كالطول مثلاً) كسبت سيطرة وهيمنة ، بينما بعض الصفات الخاملة الاخرى (كالقصر مثلاً) فقدت تأثيرها . وتلك هي النتيجة الرئيسية الاولى التي أماط مندل اللثام عنها ؛ وهي ان الصفات المسيطرة تظهر جميعها في النسل ، اما الصفات الخاملة فتتلاشى تماماً . ويسمى هذا احياناً بقانون مندل الاول .

وحياة النبات كحياة الانسان تماماً . فهي مؤلفة من اجيال كثيرة ، جيل اول يخلفه جيل ثان فثالث وهكذا .

وبعد ما اجرى مندل تجاربه على الجيل الثاني من النبات ، رأى ان يجريها على الجيل الثالث فأخذ نباتاً طويلاً ناتجاً – كما اسلفنا الوصف – من لقاح نبات طويل وآخر قصير ، وزرعه ثم لقحه تلقيحاً ذاتياً ، وازهار البازلاء تلقح نفسها بنفسها عادة لان حبوب اللقاح من اعضاء التذكير تهوي على عضو التأنيث في الزهرة عينها فتتم عملية التلقيح . ولما زرعت الحبوب الناتجة عن هذه العملية ، نبتت نباتات طويلة واخرى قصيرة . فأحصى عددها وتبين ان ٧٨٧ منها من النباتات الطويلة ، وان ٢٧٧ من القصيرة ، اي بنسبة تكاد تبلغ ٣ الى واحد . واستطاع ان يصل الى هذه النسبة عينها من تجربة ازواج اخرى .

ومن ثم يقال اننا اذا بدأنا بنبات قصير وآخر طويل ، فان الجيل الثاني سيكون كله طويلاً لان الطول يسيطر على القصر وينسخه ، اما في الجيل الثالث ، فاننا نحصل على نبات واحد قصير مقابل كل ثلاثة نباتات طويلة . وهذا هو قانون مندل الثاني .

ويجدر بنا هنا ان نلاحظ انه على الرغم من اختفاء الصفات الخاملة (كالقصر مثلاً) في الجيل الثاني ، فانها تعود الى الظهور في الجيل الثالث بنسبة الربع .

وواصل مندل سلسلة واحدة اخرى من التجارب على البازلاء ، فعالج صفتين بدلاً من صفة واحدة . اي انه لقح نباتاً طويلاً ذا زهرة ملونة بنبات قصير ابيض الزهر ، فكان النسل الناتج من النبات طويلاً ملوناً لان البياض والقصر من الخصائص الخاملة التي تختفي في الجيل الثاني .

وتبين في الجيل الثالث نشوء اربعة اصناف من النبات ، نسبتها كالآتي : ٩ ملونة طويلة و٣ ملونة قصيرة و٣ بيضاء طويلة ونبات واحد ابيض قصير . ويلاحظ ان المجموع الكلي للنباتات الطويلة هو ١٢ وان المجموع الكلي للنباتات القصيرة هو ٤ والنسبة هنا هي ٣ : ١ .

كذلك يبلغ المجموع الكلي للنبات ذي الزهر الملون ١٢ والنبات ذي الزهر الابيض ٣ والنسبة هنا كذلك ٣ : ١ فقد انتقلت كل من الصفتين الى الاجيال الثالثة مستقلة عن الاخرى .

ووصف مندل نتائجه في محاضرتين ألقاهما في جمعية برون لدراسة العلوم الطبيعية في شهري فبراير ومارس من عام ١٨٦٥ ونشرتا في الكتاب السنوي للجمعية في العام التالي . وارسل هذا الكتاب الى الجمعيات الاخرى جرياً على المألوف ، غير أن كشوفه لم تنل ما هي اهل له من عناية لان دارون العالم الكبير كان قد نشر كتابه « اصل الكائنات » في عام ١٨٥٩ وشغل العلماء في العالم بمناقشته طويلاً فلم يعنوا بمكتشفات مندل البعيدة الاثر . وكان هذا مدعاة لسخط مندل ، علاوة على انه حاول تطبيق نتائج كشوفه على نباتات اخرى فاخفق فيما اراد مما زاد به حنقاً وسخطاً .

ذلك انه أجرى تجاربه على الفول ، فكانت نتائجه مشابهة لنتائج البازلاء لان النباتين متشابهان . ورأى مندل ، كما يفعل

معظم العلماء الكبار عادة – انه يجب عليه اجراء نتائجه على نبات مختلف كل الاختلاف ، فتخير نباتاً ذا زهر صغير ، مما جعل مندل يصادف عناء كبيراً في تلقيحه . غير أنه استطاع بعد مشقة – معرضاً بصره للخطر – ان ينجح في بعض الحالات . ولما اراد ان يفحص الجيل الثالث، تبين له ان نسبة ١ : ٣ لم تصدق، فقد كانت معظم النباتات مشابهة للجيل السابق لها . وبعد ثلاثين عاماً اكتشف العلماء تعليل هذه الظاهرة . فلم تثبت تلك التجربة ان قانون مندل غير صحيح وانما كان اخفاقه في هذه الحالة بعينها يرجع الى طبيعة هذا النبات الشاذة وقدرته على ان ينتج حبوباً بدون حاجة الى تلقيح . وقواعد الوراثة العادية لا تنطبق على امثال هذه الحبوب ، غير ان مندل لم يستطع ان يدرك هذا الامر عندما تخير نباتاً من النباتات القليلة التي يتعذر تطبيق هذا القانون عليها . وهذه آية على ان المصادفة قد توجه البحث اما الى نجاح او الى اخفاق .

وفي يوم ٣٠ مارس ١٨٦٨ ، انتخب جريجور مندل رئيساً للدير ، وهو منصب كبير الشأن وأعرب سكان برون عن ارتياحهم الكبير الى هذا الاختيار ، لانه برهن على نشاط وكفاءة وعدل . ولكنه أسف اشد اسف على انه اضطر الى ترك مهمة تدريس الطبيعة في المدرسة الحديثة ، وجعل منه المنصب الجديد رجل ثروة ونفوذ ، ونهض بأعبائه موفقاً حتى منتهى عمره .

ولما عين رئيساً للدير ، ظن اول الامر انه يستطيع ان يواصل تجاربه على النباتات ولكنه تبين ان أمامه عملا كثيراً يتعين انجازه ، فلم يجد متسعاً من الوقت يمضيه في ابحاثه النباتية .

فعاد بالتدريج الى الفلاحة اليسيرة التي ألفها منذ حداثته ، وجعل يجري بعض التجارب القليلة كأن يلقح زهرة بلقاح اخرى او يطعم شجرة من اشجار الفاكهة بجذع من شجرة اخرى . وقصده معظم زراع الفاكهة في المنطقة يطلبون مشورته ومعونته . ويقال ان عدداً كبيراً من اشجار الدير لا يزال يحمل الى الآن لوحات رصاص عليها الحرفان الاولان من اسم مندل « ج . م » وكان يربط مندل هذه اللوحات الى جميع الاشجار التي يطعمها .

وشرع كذلك يربي النحل ، فزرع منطقة واسعة من الارض الجرداء بالزهر والشجر ليهيء للنحل غذاء كافياً . ولم يكن يعنى بجمع العسل وحده ، بل كان يعمل عدا ذلك على تدوين ملاحظات عن مملكة النحل وتناسله ونشاطه في الخلايا الكثيرة التي يملكها . ولعله كان يأمل ان يكتشف حقائق جديدة عن الوراثة عند النحل . ثم راح يدرس احوال الجو ، واخذ يدوّن ملاحظات دقيقة تتعلق بجميع الحقائق المتصلة به . وفي عام ١٨٧٠ ، اجتاحت مدينة برون عاصفة هوجاء انزلت بها خسارة فادحة ، وقلما تعصف بالمدينة مثل هذه الريح العاتية . وقد كتب مندل عنها تقريراً مسهباً ضمنه تكهنات عجيبة عن طبيعة العاصفة واصلها .

وكان مندل في جميع السنوات التي امضاها رئيساً للدير مضيافاً كريماً ، يسخو على عدد كبير من طلابه القدماء وسواهم من اصدقائه الذين كانوا يفدون لزيارته . وكان ينفق دخله في مساعدة الآخرين وكان يسر كثيراً اذ يزور ابناء شقيقته وبيته القديم حتى وافته منيته عام ١٨٨٤ في اليوم السادس من شهر يناير منه .

وظل العمل الكبير الذي انجزه جريجور مندل عن النباتات نسياً منسياً من الجميع مدة طويلة باستثناء اصدقائه في برون . وفي مارس من عام ١٩٠٠ ظهر بحث في المانيا كتبه عالم نباتي يدعى هوجو دي فري ضمنه بعض تجارب اجراها على النباتات، واشار فيها الى انه بعدما حقق بعض نتائج تبين ان مندل نشر هذه النتائج عينها منذ اربع وثلاثين سنة مضت . وبعد شهر واحد ظهر بحث آخر في الموضوع عينه بقلم كارل كورنز اشار فيه اشارة اخرى الى القيمة المنسية لاعمال مندل ، وتبع ذلك رسالة ثالثة كتبها في فينا اريك تشرمارك . . . فبدأت اعمال مندل تخرج الى النور ثانية .

ومنذ عام ١٩٠٠ وعلماء الحياة يعولون الى حد كبير في ابحاثهم حول موضوع الوراثة على قوانين مندل ، ولعل في المثل التالي ما يوضح هذا : القمح عماد الحياة لانه الغذاء الرئيسي في بلدان شتى . وكل زيادة في غلة القمح في مساحة معينة من الارض ، وكل تحسين في نوع القمح له تأثير مباشر في حياة الملايين من الناس . وقد تبين ان بعض انواع القمح له قابلية لمقاومة الامراض التي تنتابه غير ان هذا الصنف ينمو على عيدان ضعيفة هزيلة جداً وتستطيع الرياح بسهولة ان تفسد المحصول . وهناك انواع اخرى من القمح ذات عيدان متينة غير ان السنبلة منها لا تحتوي الا على عدد قليل من حبات القمح . وبتطبيق قوانين الوراثة استطاع علماء النباتات ان ينتجوا انواعاً جديدة من القمح لها جميع الصفات الجيدة المطلوبة ، فأمكن الحصول الآن على حبوب كبيرة الحجم تحتوي السنبلة منها على عدد كبير ، ولها مقدرة كبيرة على مقاومة الامراض ، وتنمو على عيدان قوية ، ولها صفات جيدة في صنع الخبز .

وجميع المعارف الواسعة التي حصلناها عن الوراثة انما تنهض على اساس المعلومات التي كشفها جريجور جوهان مندل .

القاهرة — وديع فلسطين

من مفارق التاريخ

بقلم يوسف جورج عزريا

☆

نوبة امام الخلاعة : أبي نواس

امام الخلاعة ! ومن اجدر بهذا اللقب من ابن هانيء . نشأ امامنا نشأة اخلاقية دينية، ولكنه انقلب فجأة على الدين والاخلاق، فماذا طرأ له يا ترى حتى اصبح بعد ان كانت امه تطمع الى جعله اماماً دينياً، اماماً للخلاعة والتهتك حتى قيل اليوم فيه (لقد وضع النواسي الحجر الاساسي في سفارة ابليس في هذه الدنيا).

يعزو البعض نقطة التحول في حيـاة شاعرنا الى بغداد التي هاجر اليها والتي كانت يومذاك لا تزيد عن انها مأدبة ممدودة للغرائز والحواس . فجاء ابو نواس بشعر لم يخرج عن كونه مرآة جيلها الماجن . ولكنني شخصياً لا اميل الى القاء كل التبعة على بغداد ، فقد عاصر كثير من الشعراء النواسي ولكنهم مع ذلك لم ينهجوا منهجه ولم يطلع شعرهم بمـا طلع به شعره من الخلاعة والعبث . واغلب ظني ان العامل الاول في تحوله هو خيبة الامل فقد كان يأمل ان يغدو قاضياً مقرباً الى الخلفاء او شاعراً يتنافس عليه الامراء ، ولكن خيبة الامل شفت له عن لؤم معاصريه الذين أبوا عليه سبيل طموحه ، فكانت النتيجة هذا التحول في حياته ، تحول الى رجل عادي لا يهمه من حياته الا يومه وحسب ، وهذه نتيجة طبيعية لكل من يصاب بخيبة مرة من هذا النوع .

وهكذا نرى بان خيبة الامل كانت اول عامل في تكوين شخصية شاعرنا . كما ان الآلام والمتاعب التي صادفته في مستهل حيـاته جعلت منه هذا الشاعر المستهتر بكل شيء . فقد كان – كما يقـال – ابن لابوين لم يقترنا ، وقد مات ابوه وهو طفل فادخلته امه المدرسة حيث اكب عـلى دراسة القرآن والعلوم الدينية فنبغ ، ولكنه ما لبث ان اخرجته امه من المدرسة بسبب ضيق ذات اليد ورمت به بين يدي العطـارين والباعة يجبي قوت يومه . فنشأ هذا الفتى وقد اكتسب كثيراً من المفاسد التي كانت تقوم عليها الدنيا في تلك الايام . وما اسرع ما يكتسب الطفل الرذائل حين يكون محروماً من عطف الاب وحنان الام .

وللدكتور زكي مبارك رأي آخر في تعليل مجون ابي نواس فهو يرى « اننا جميعاً في هذه الدنيا مسخرون لالوان من الطبائع فيها السواد والبياض والحلاوة والمرارة والجد والمجون . ونحن لا نعبث حين نشاء وانما نعبث حين تشاء قوانين الوجود . فابو نواس العابث الماجن هو شخص يجد اعنف الجد في تحقيق مـا ارادت له الحياة ان يكون ، هو شخص مسكين اوقفته الحياة في صف من صفوف الحرب ثم قالت له : دافع ايها الجندي الامين عن « ثغر » المجون . وعـاش ابو نواس جندياً يحارب حتى سقط في الميدان ، ميـدان الفضيحة لا ميدان الشرف . لان « الثغر » الذي وقف يحميه لا يسمى صرعـاه بالشهداء ، فهذا المسكين الذي ضحى بحياته في سبيل الحياة لم يظفر بشيء من المجد ، ولا بنصيب الجندي المجهول ، وانما ظفر بنصيب الجندي المتعوس ، وللحياة قوانين منها قانون اسمه قانون الحرمان ، وبفضل هذا القانون خلد ابو نواس » .

اما نحن فنرى ان خيبة الامل هذه هي التي دفعته دفعاً الى معاقرة الراح فوقف عليها درره وخلدته .

ويبدو لنا من خلال خمرياته انه قد نعم بحنان الخمرة اكثر مما نعم بحنان والديه وهذا الشعور هو الذي دفعه الى القول :

قطربل مربعي ولي بقرى الكرخ مصيـف وامي العنب
ترضعـني درهـا وتلحفـني بظلهـا والهجير يلتهب

وهذان البيتان بالاضافة الى جمال معناهما يقومـان في صورة شعرية جذابة دفعت – مع غيرها من صوره – بعض النقاد الى

تفضيل صوره على صور ابن الرومي . والحقيقة التي يقرها الجميع ان ابا نواس حين يصف لذاته تراك امام مصور عالمي بارع يجيد مزج التراكيب والتشابيه ويصوغ منها صوراً كلامية يعجز عن رسمها اكبر الرسامين، وقد فاقت صور ابي نواس صور جميع شعراء عصره وما ذلك الا لانه كان يتركها بلا اطار ولا رتوش .

اما تراه يصور لنــا حياته العابثة تصويراً سينمائياً متحركاً حين يقول :

طربت الى الصنج والمزهر　　وشرب المدامة بالاكـبر
وألقيت عني ثيـاب الهوى　　وخضت بحوراً من المنكر
واقبلت اسحب ذيل المجو　　ن وامشي الى القصف في مئزر

وكذلك اما تلمس صورة الفكــاهة المرة حين تراه يصف احد البخلاء بقوله :

رأيت (الفضل) مكتئبا　　ينـاغي الخبز والسمكا
فاسبـل طرفـه لمـا　　رآني قادمـاً وبكى
فلما ان حلفت لـه　　بأني صـائم ضحكا

وكذلك هذه الصورة التي يصف لنا فيها صورة تعجز عن رسمها الريشة مهما بلغت براعة حاملها قال :

ما زلت استل روح الدن في لطف　　واستقي دمه من جوف مجروح
حتى انثنيت ولي روحان في جسد　　والدن منطرح جسماً بلا روح

ولعلكم قد لاحظتم معي بان صور ابي نواس تتميز دائماً بطابع الصراحة والجرأة ، وان كانت جرأته في كثير من الاحيان تتحول تحت تأثير السكر الى وقاحة . امــا صراحته فكانت نتيجة لاعتقاده بأن قاطع الطريق الذي يفاجىء الانسان خير من السفاح الذي يبدو في مسوح الرهبان . ومن هنــا بات شعر ابي نواس وثيقة منقطعة النظير في ادبنا العربي في الصراحة والجرأة وصدق التصوير ، فانه لم تجل بنفسه خطرة او داعبتــه نزوة او شهوة الا وكشف عنها القناع وترنم بها في شعره .

وعلى ذكر اللذة نرى بان هنــالك حقيقة اخرى يجب ان نذكرها عن ابي نواس وهي ان هذا الشاعر قد أوتي مقدرة عظيمة على اعطاء اللذة فلسفتها كما فلسف ابو العتاهية الزهد . وقد كانت فلسفته في اللذة نفس فلسفة عمر الخيام فكلاهما يعتقد ويجاهر بانه (اذا كان الموت واقفاً لنا بالمرصاد فما اجدرنا بالاسراع في اقتناص لذات الحياة والاندفاع في سبل الغواية والمرح) . لذلك نستطيع ان نقول ان ابا نواس جعل اللذة غايته في الحياة وآمن ايماناً متيناً بان الغاية تبرر الواسطة فسار على هذه القاعدة طول حياته .

والآن بعد كل ما رأيناه من لمحات عــابرة عن حياة هذا المتهتك نأتي الى اسطورة توبته التي ألصقها المؤرخون الصاقاً به في آخر حياته على الرغم من انه انكرها حين قال مخاطباً الذين نصحوه بترك الخمر بعدما تقدمت به السن :

قالوا : كبرت ، فقلت : ما كبرت يدي　　عن ان تسير الى فمي بالكاس

وحين اوصى قبيل وفاته :

خليــلي بالله لا تحفرا　　لي القبر الا بقطربــل
خلال المعاصر بين الكروم　　ولا تدنياني من السنبل
لعلي اسمــع في حفرتي　　اذا عصرت ضجة الارجل

ولكن مع ذلك فقد اختلف الكتاب كثيراً في مسألة زهد ابي نواس وهم يحاولون ان يحلوا طلاسم هذه التوبة المزعومة .

ومما يعتمد عليه الذين يرون ان ابا نواس عاش متهتكاً ومات متهتكاً الابيات التي ذكرناها اعلاه . الا ان الذين يؤيدون توبته لم يحرموا من ابيات كثيرة وردت في باب الزهد من ديوانه كقوله :

دب في الفناء سفلاً وعلواً　　واراني اموت عضواً فعضوا
ذهبت شرتي بجدة نفسي .　　وتذكرت طاعة الله نضوا
ليس من ساعة مضت بي الا　　نقصتني بمرهــا بي جزوا
لهف نفسي على ليال وأيا　　م سلكتهن لعبــاً ولهوا
وأسأنا كل الاساءة يـا ر　　ب فصفحاً عنا الهي وعفوا

• ألا رب وجه في التراب عتيق　　ويا رب حسن في التراب رقيق
ويا رب حزم في التراب ونجدة　　ويا رب رأي في التراب وثيق
فقل لقريب الدار انك راحل　　الى منزل نائي المحــل وثيق
وما الناس الا هالك وابن هالك　　وذو نسب في الهالكين عريق
اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت　　له عن عدو في ثياب صديق

والحقيقة في توبة ابي نواس هو ما عبر عنه شوبنهور بقولــه (اننا اذا سلكنا في الحياة اي طريق فاننــا نظل غير قانعين به متطلعين الى سلوك طريق غيره) ولكنهــا توبة عجز — ان صح التعبير — . على انه نفسه كان اول من شعر بان توبته غير صادقة فقال :

وما حجتي يوم الحساب اذا　　شهدت علي بما جنيت يدي

لحظات مع الزهاوي

يقول بونكاريه « اذا تضــاربت الآراء في انسان فتلك شهادة على انه عظيم » . ولعل هذا القول لا ينطبق تمام الانطباق كما ينطبق على الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ — ١٩٣٦) . فقد تضاربت الآراء كثيراً في هذا الرجل فمن قائل انه شاعر وفيلسوف ليس الا . وهنــالك من يقول انه شاعر وفيلسوف معاً . ثم يأتي ايضاً من يزعم انه ليس بشاعر ولا بفيلسوف بل هو عالم او حكيم . وهكذا استطــاع الزهاوي ان يثبت اركان عظمته على هذا الاختلاف والتباين في الآراء .

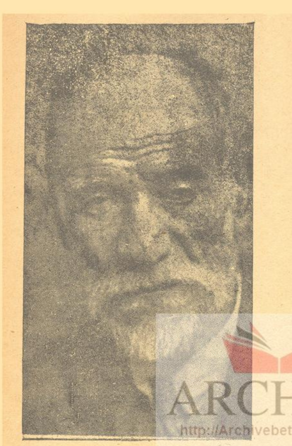
اما رأيي الخاص — وقد اكون على صواب — فهو ان الزهاوي

فيلسوف وليس بشاعر . وهو لم يتخذ الشعر الا وسيلة لبلوغ غايته التي هي الفلسفة . بل لعله لم ينظم الشعر الا لانه اراد ان يقلد او يرضي والده الشاعر . وقد يعترض عليّ البعض في ان الزهاوي لم يقم لنفسه مذهباً فلسفياً واضحاً نستطيع ان نرسم حدوده كما نرسم حدود المذاهب الفلسفية المعينة او نعين اتجاهه كما نعين اتجاه فلسفة افلاطون او ارسطو او غيرهما . ولهؤلاء المعترضين اقول ان الاختلاف بيني وبينكم لن يعدو حدود تعريف الفيلسوف . فقد اختلفت الاقلام كثيراً في تعريف هذه الكلمة ولكن اكثرها اتفق في ان الفيلسوف هو الشخص الذي يبحث عن الحق دائماً فاذا ما اهتدى اليه او الى ما ظنه الحق لاءم بين ذلك وبين حياته اليومية . وهذا هو رأي الاستاذ طه بك حسين وكثير من الادباء غيره . لذلك بناء على هذا التعريف ارى اننا نستطيع ان نطلق كلمة فيلسوف على الاستاذ جميل صدقي الزهاوي فهو انسان قضى عمره كله باحثاً عن الحق ولاءم بين ما اهتدى اليه وبين حياته اليومية ولم يحد عن ذلك قيد انملة . وهو وان لم يتبع مذهباً فلسفياً معيناً الا انه جال بين اغلب المذاهب الفلسفية المعروفة واخذ منها ما شاء وترك ما شاء . وبهذا استطاع ان يبرز لنا فلسفة عجيبة متناقضة تشع من كل قصيدة من قصائده . وشأنه في هذا شأن استاذه الروحي ابي العلاء المعري الذي وان لم يخلف مذهباً فلسفياً معيناً الا ان شعاع فلسفته المنبعث من اللزوميات وغيرها لا يستطيع ان ينكر توهجه أحد .

وقد يعجب البعض عندما يروني أجرد الزهاوي من شاعريته التي اشتهر بها اكثر من اشتهاره بالفلسفة . ولكن هذا هو الواقع فالزهاوي ليس شاعراً اذ ان الشاعر يعتمد على العاطفة والخيال قبل العقل ، والزهاوي كان لا يبالي بالعواطف او الخيال ابداً ومن يقرأ شعره لا يرى فيه الا حقائق تعتمد على العقل قبل اي شيء آخر ولم يستطع ان يكسبها بوشاح من الروح الشاعرة على الرغم من محاولاته العديدة . فهو والحالة هذه ناظم وليس بشاعر . وهو نفسه يكاد يعترف بذلك :

ولقد جئت بالحقائق أشدو   وتركت الخيال للشعراء

والزهاوي في نظمه يأخذ القارىء الى عوالم كثيرة لا عد لها ولا حصر . فهو مفكر عظيم استطاع ان يتأثر تأثراً كبيراً بفلسفة المعري فظهر اثر ذلك واضحاً في كل بيت وقصيدة من منظوماته . وقد عاش الزهاوي كاستاذه في عصر تتصارع فيه قوى الشر والخير ويتطاحن فيه الشك واليقين ويتنازع فيه القديم والجديد تنازعاً لا ينتهيان منه الا ليبدآه ثانية . نظر الزهاوي



جميل صدقي الزهاوي

●

ببصره وبصيرته الثاقبين الى كل ما حواليه فرأى صورة بشعة لا تتناسب مع تلك الصورة الجميلة الساحرة التي كان قد رسمها في مخيلته لمجتمع امثل بل لعالم امثل . فكان ان أولدت فيه خيبة الامل شعوراً تمردياً سرعان ما انقلب الى ثورة فكرية جارفة جعلت منه ذلك الزهاوي الذي ثار حتى على الله .

والثائر الفكري تنطبق عليه في اغلب الاحيان نظرية اجتماعية معروفة هي نظرية الرقاص « The Pendulum Theory » وهي تتلخص في ان الثائر اذا ما نظر حواليه رأى ان كل ما يقع عليه بصره قد انحرف عن مكانه الى جهة اليسار مثلاً كرقاص الساعة . فلا يلبث ان يصمم النية على ان يرجع ذلك الرقاص الى مكانه في الوسط . وهكذا يجمع قواه ويستجم نشاطه ثم يمسك بذلك الرقاص ويسحبه سحبة واحدة الى اليمين

قاصداً ارجاعه الى محله في الوسط ولكن قوة السحبة تجعل ذلك الثائر لا يشعر الا والرقاص قد قطع الوسط وصار في اقصى اليمين وهكذا كانت الحال مع الزهاوي . فهو قد نظر الى مجتمعه فرآه قد انحرف عن جادة الصواب فاراد ان يصلحه فلم يشعر الا وهو يسحبه – في عنفوان الثورة – سحبة قوية فاذا به في اقصى الجهة المقابلة اي التطرف . وبهذا نعلل كيف ان معاصريه اتهموه بشتى التهم واقلها الزندقة والجنون . وتلك نتيجة طبيعية لكل من يحاول ان يقفز السلم قفزة واحدة بدون مراعـاة شعور عصره ومجتمعه . فكانت النتيجة ان الزهاوي كان سابقاً لاوانه فقامت ثائرة الناس ضده واضطره ، واطنوه الى ترك العراق اكثر من مرة ، بل ان بعض الجموع حاولت مهاجمة داره وقتله ، ولكنه لم يكن ليهتم بكل ذلك بل واصل رسالته حتى آخر رمق من حياته . ولندعه يصف لنا كيف قابل اولئك الذين جاءوا لقتله :

هي الحقيقة ارضاها وان غضبوا   وادعيها وان صاحوا وان جلبوا
اقولها غير هياب وان حنقوا   وان اهانوا وان سبوا وان ثلبوا
لهفي على أمة ما زلت أرشدها   الى سبيل هداهـا وهي تجتنب
جاءوا الي غضاباً يزحفون ضحى   فما رأيتهم الا قد اقتربوا
هذا يسير على مهل ويشتمني   وذاك يحبو وذا يعدو وذا يثب
ماذا تريدون مني يا بني وطني   ان كان ما تبتغون الحرب فاحتربوا
سلاحكم خنجر عند التناحر او   مسدس وسلاحي في الوغى قصب
يا قوم في كل عصر جاء ثم خلا   قد غالب العلم جهال فما غلبوا

أرأيت كيف ان الزهاوي كان من اولئك الذين لا يثنيهم شيء في الحياة عن اداء رسالتهم . وعلى الرغم من كل ما لقيه من جحود بني قومه له فقد بقي مخلصاً للعراق اشد الاخلاص .

بل هو يؤكد انه يحب وطنه اكثر مما يحبه اي من بنيه :

لم اكن قد عشقت وحدي ليلى   ان ليلى كثيرة العشـاق
كلكم يشتهام شوقاً ولكن   لا تضاهي اشواقكم اشواقي

ويبلغ به حبه لليلى «العراق» درجة تجعله يخر على قدميها مستغفراً :

ان تكن ليـلى رأت مني ذنباً في ولوعي
فانا اغسل ذاك   الذنب مني بدموعي

فهل يشك احد بعد هذا في ان الزهـاوي كان مخلصاً لوطنه ولابناء وطنه . وهل يشك احد في انه بكل مـا بشر لم يكن يدفعه الى ذلك غير قوى الحق والخير . وقد دافع كثيراً عن نفسه ولكن لم يصدقه احد الا بعد مماته . ومن اقواله مدافعاً عن نفسه :

يا نفس قد سبوك حين نصحتهم   هذا جزاء الناصحين فذوقي
قالوا اطردوا الزنديق من اوطانكم   ماذا يخاف القوم من زنديق
قالوا اقتلوه فانما هو مارق   مـاذا يضرم المؤمنين مروقي
انا لست زنديقاً ولا انا مارق   حتى يحـل لظفركم تمزيقي

ولكن انى للحاقدين ان يصدقوا ما يقول وهم الذين :

ردوا بسبي على رأي جهرت به   كأنما السب من بعض البراهين

لكن الزهاوي كما قلت لم يكن يوماً ما ليبغي ارضاء الناس لذلك استمر في ثورته الجارفة ولم يدع شيئاً الا وكواه بنار قلمه !

فهو ثائر على التقاليد الاجتماعية :

مزقي يا ابنة العراق الحجابا   واسفري فالحياة تبغي انقلابا
مزقيه واحرقيه بـلا ريث   فقد كان حارسـاً كذابا
مزقيه وبعد ذاك ايضـاً   مزقيه حـتى يكون هبابا
انزعيـه بقوة وطئيـه   واجعلي في فم الخنيق ترابا
عجبي ان تمد نظرة انسان   الى مثله من النـاس عـابا
ان هذا الحجاب ان كان يرضي   الشيب فاليوم ليس يرضي الشبابا
قد اسـاء الشيوخ في المرأة   الظن فسنوا لها الحجاب عقابا
زعموا ان في السفور سقوطاً   في المهاوي وان فيه خرابا
واذا مـا طلبتهم بدليـل   يثبت الزعم اوسعوك سبابا

وتستطيع ان تتصور جرأة الزهاوي اذا ما علمت انه نظم هذه الابيات وغيرها في زمان كان السفور فيه يعد تهتكاً وخلاعة بل عهراً .

والزهاوي ثائر وطني يذكر قومه بالانتقام من مهينيهم :

لهف نفسي عـلى رفاة شباب   طحنتهم طحن الرحى النائبات
فوق وجه البيض الحسان سطور   كتبت بالدموع فيها شكاة
ارهقوكم ذلاً وانتم سكوت   اين اين الاحرار اين الاباة
قد سقونا كأساً ، سنشرب منها   عن قريب من الزمان السقاة

ويخاطب الجائرين كما خاطب السلطان عبد الحميد :

فيا ملكاً في ظلمه ظل مسرفاً   فلا الامن موفور ولا هو يعدل
تمهل قليلاً لا تغظ امـة اذا   تحرك فيهـا الغيـظ لا تتمهل
وايديك ان طالت فلا تغترر بها   فان يد الايـام منهن اطول

وهو ثائر على رجال الدين :

وواعظ غارق في لحية كبرت   يأتي بكل قبيح ثم ينهانـا
لا واللحى والذي في الوجه انبتها   ما ان تكون اللحى للفضل ميزانا

وهو ثائر على ما جاءت به الاديان :

العقل بحاث يطـالب اهله   بدلائل والدين غير مطالب
العقل جـاء مقرر لحقائق   والدين جـاء ممثل لرغائب
وعدوني سعـادة بعد موتي   اصلاة اقيمهـا قبل فوتٍ
ليتني نلت قبل موتي ما قد   وعدوني بنيله بعـد موتي

هذه ايها القارىء لمحات عابرة يكتبهـا عراقي عن فيلسوف عراقي مثله . وان كان الزهـاوي قد لقي الكثير من الآلام في حياته فيكفيه فخراً انه قد ادى رسالته ، ويكفيه مجداً ان بني وطنه قد عرفوا اليوم منزلته فوضعوه في المكانة اللائقة به بين الرجال الخالدين . اما انت ايها القارىء فلك الاختيار فان انت نعته بما شئت . . فلك ان تقول انه من توافه الطبيعة او من فلتاتها النادرة ! .

يوسف جورج عزريا

من ادب الربيع

بقلم يوسف يعقوب مسكوني
امين خزانة كتب المجمع العلمي العراقي

للربيع محاسنه ومباهجه فهو يطالع علينا بثغره البسام وعطره الفواح وشذاه المعطر وعبقه المسكي النفاح . فهو بشير نذير بوسم ومواسم، بوسم الورود والعطور والاقحوان والنيلوفر والزنبق والياسمين ؛ ثم بوسم الصيف الذي ينضج ما ازهر واثمر وهكذا يطالع علينا بحياة جديدة وعيش جديد نودع فيه ما اقحل الشتاء وما اجدب من ارض ونبت . فلذلك جله الشعراء والادباء وشاوه بوصفهم نظماً ونثراً فقالوا فيه القصائد المحجلات والمقالات المطولات وبرعوا في وصفه كل البراعة فوصفوا هواءه ونوره وزهره ونبته وقطره ومطره ونداه ومزنه ورذاذه ونفاه ومروجه واياه الجميلة واخضراره النضر ومن ذلك ما جاء في قول ابي الحسن محمد بن علي بن وكيع :

يوم اتاك بوجهه المتهلل ... ناهيك من يوم اغر محجل
خلع الغمام على اخضرار سمائه ... خلقاً فبين مسك ومصندل
وكسا الربى حللاً تخالف شكلها ... بورد ومعصفر ومكحل
وقابلت فيه قدود غصونه ... من شرب كاسات العيون الهطل
وعلا على الاشجار قطر سمائها ... فهدت لعين الناظر المتأمل
يحكي قباب زمرد قد كللت ... بمنظم من لؤلؤ ومفصل
الورد يحمل كل نور طالع ... وتراه منتقباً بحمرة مخجل
وحكى بياض الطلع في كافوره ... وجه الخريدة في الخمار الصندلي
فكأنما الدنيا عروس اقبلت ... في كل انواع الملابس تجتلي
فاشرب معصفرة القميص سلافة ... من صنعة ابردان او قطربل

وقال ابو الفتح البستي :

يوم له فضل على الايام ... مزج السحاب ضياءه بظلام
فالبرق يخفق مثل قلب هائم ... والغيم يبكي مثل طرف هام
وكأن وجه الارض خد متيم ... وصلت سجام دموعه بسجام
فاطلب ليومك اربعاً هن المنى ... وبهن تصفو لذة الايام
وجه الحبيب ومنظراً مستشرقاً ... ومغنياً غرداً وكاس مدام

وقال الامير ابو الفضل الميكالي :

سل الربيع على الشتاء صوارماً ... تركته مجروحاً بلا اغماد
وبكت له عين السماء بادمع ... ضحكت لساجمها ربى الانجاد
وبدت شقائقها خلال رياضها ... ترهي بثوبي حمرة وسواد
فكأنها بنت الشتاء توجعت ... لمصابه كشقيقة الاولاد
لفنوء حمرتها خضاب نجيعه ... وسواد كسوتها لباس حداد

وقال ايضاً :

تصوغ لنا كف الربيع حدائقاً ... كعقد عقيق بين سمط لآلي
وفيهن انوار الشقائق قد حكت ... خدود عذارى نقطت بغوالي

واما في حديقة ريحان فيقول :

اعددت محتفلاً ليوم فراغي ... روضاً غدا انسان عين الباغ
روض يروض هموم قلبي حسنه ... فيه لكاس الانس اي مساغ
فاذا بدت قضبان ريحان به ... حيث يمثل سلاسل الاصداغ

وقال في النرجس :

اهلاً بنرجس روض ... يزهى بحسن وطيب
يرنو بعين غزال ... على قضيب رطيب
وفيه معنى خفي ... يزينه للقلوب
تصحيفه ان نسقت الـ ... حروف بر حبيب

وقال كذلك :

وما ضم شمل الانس يوماً كنرجس ... يقوم لبذر اللهو عن خالع العذر
فاحداقه احداق تبر وساقه ... كقامة ساق في غلائله الخضر

وقال البحتري الشاعر المشهور :

سقى الغيث اكناف اللوى من محلة ... الى الحقف من رمل اللوى المتقاود
ولا زال مخضر من الروض يانع ... عليه بمحمر من النور حاسد
شقائق يحملن الندى فكأنه ... دموع التصابي في خدود الخرائد
ومن لؤلؤ في الاقحوان منظم ... ومن نكت مصفرة كالفرائد
كأن جني الحوذان في رونق الضحى ... دنانير تبر من توام وفارد
رباع تردت بالرياض مجودة ... بكل جديد الماء عذب الموارد
اذا راوحتها مزنة بكرت لها ... شآبيب مجتاز عليها وقاصد

وكان ازدشير بن بابك يصف الورد ويقول :- هو در ابيض وياقوت احمر على كراسي زبرجد اخضر وتوسطه شذور من ذهب اصفر له رقة الخمر ونفحات العطر فاخذ محمد بن عبدالله بن طاهر فقال :

كأنهن يواقيت يطيف بها ... زمرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظر مستظرف حسن ... من خمرة مزة كالجمر في اللهب

وقال علي بن الجهم الشاعر المشهور :

لم يضحك الورد الا حين اعجبه ... حسن الرياض وصوت الطائر الغرد
بدا فابدت لنا الدنيا محاسنها ... وراحت الراح في اثوابها الجدد
وقابلته يد المشتاق تسنده ... الى الترائب والاحشاء والكبد
كأن فيه شفاء من صبابته ... او مانعا جفن عينيه من السهد
بين النديمين والخلين مصرعه ... وسيره من يد موصولة بيد
ما قابلت طلعة الريحان طلعته ... الا تبينت فيه ذلة الحسد
قامت بحجته ريح معطرة ... تشفي القلوب من الاوصاب والكمد
لا عذب الله الا من يعذبه ... بمسمع بارد او صاحب نكد

ومما قاله ابو فراس الحمداني في هذا الصدد :

ويوم جلا فيه الربيع رياضه ... بانواع حلي فوق اثوابه الخضر
كأن ذيول الجلنار مطلة ... فضول ذيول الغانيات من الازر

ومما قيل في الربيع نثراً : يوم سماؤه كالخز الادكن وارضه كالديباج الاخضر . يوم حسن الشمائل ممتع المخايل . سجسج الهواء . مونق الارجاء . يوم تبسم عنه الربيع وتبرج عنه الروض المريع يوم كأن سماءه مأتم تتباكى وارضه عروس تتجلى . يوم غاب نحسه وهوى ، وطلع سعده واعتلى .

ومما قاله ابو الفتح كشاجم في امطار الربيع :

وروض من صنيع الارض راضٍ   كما رضي الصديق عن الصديق
اذا ما القطر اسعده صبوحاً   اتمّ لـه الصنيعة في الغبوق
يعير الريح في النفحات ريحاً   كأنّ ثراه من مسك فتيق
كأنّ الطل منتشراً عليـه   بقايا الدمع في الخـد المشوق
كأن غصونه سقيت رحيقاً   فمالت مثـل شرّاب الرحيق
كأن شقائـق النعمان فيه   مخصّرة شقائـق من عقيـق
يذكرني بنفسجـه بقايـا   صنيع اللطم في الخد الرقيق

وقال كذلك :

غيث اتانـا مؤذناً بالخفض   متصل الوبل مريع الركض
دنـا فخلنـاه دوين الارض   متصـلاً بطولـه والعرض
الفـا الى الف بسر يفضي   ثم سما كاللؤلـؤ المرفض
فالارض تجلى بالنبات الغض   في حليهـا المحمرّ والمبيض
من سوسن احوى وورد غض   مثل الخدود نقشت بالعض
واقحوان كاللجـين المحض   ونرجس زاكي النسيم بض
مثـل العيون رنقت للغمض   ترنو فيغشاها الكرى فتغضي

وقال البحتري ايضاً يصف طيور الربيع :

حيتك عنا شمال طاف طائفها   بجنة فجرت راحـاً وريحانا
هبت سحيراً فناجى الغصن صاحبه   سراً بها وتداعى الطير اعلانا
ورق تغني على خضر مهدلة   تسمو بها وتمس الارض احيانا
تخال طائرها نشوان من طرب   والغصن من هزه عطفيه نشوانا

اما صفي الدين الحلي فوصفه الربيع مشهور معلوم يتردد على الافواه كلما ذكر الربيع او جاء موسمه فهو يقول فيه :

ورد الربيع فمرحباً بوروده   وبنور مورده ونور وروده
فصل اذا فخر الزمان فانه   انسـان مقلته وبيت قصيده
والغصن قد كسي الغلائل بعدما   اخذت يدا كانون في تجريده
والورد في اعلى الغصون كأنه   ملـك تحف به سراة جنوده
فانظر لنرجسه الشهي كأنه   طرف تنبّه بعد طول هجوده

ولنختتم مقالنا هذا بأبيات اجاد بها في وصف الربيع المرحوم احمد شوقي امير الشعر ونابغة الشعراء حيث يقول :

آذار اقبل قم بنا يا صاح   حيّ الربيع حديقة الارواح
لبست لمقدمه الخمائل وشيها   ومرحن في كنف له وجناح
يغشى المنازل من لواحظ نرجس   آنا وآنـا من ثغور اقـاح
وروؤس منثور خفضن لعزة   فيجاهن عواطر الارواح
والورد في سرر الغصون مفتح   متقابـل يثني على الفتـاح
ضاحي المواكب في الرياض مميز   دون الزهور بشوكة وسلاح

يأس

●

رنقت عيناي
ووجف قلبي
سماعي كلالة ...
عنف ... وألوف من الأرياح
تمرّ ملسى ...
لأمّة البشر شرّ ...
خذ مني كعبتي
وجسّد الفكر حباً وسلاماً ...
هزء ... وسخرية ...
ألكني الى صواي
بين صوحي ذياك الوادي البعيد ...
هلّ عليّ الليالي ثرى
ملتُ صهوبة النهار
وضلت ملاوي الدنى
آن أن أكون ...
انقذني إلهي ...
جسدي فناء وروحي صداء
تتلمس من التدني ... للقاك ...
آن أن أكون ...

ثريا ملحس

هذا قليل من كثير في وصف الربيع وامطاره وازهاره ورياحينه حيث اطنب الشعراء كثيراً فقالوا فيه غرر القصائد والمنظومات ما لا يتسع المجال لسردها والاتيان بكثيرها بل اكتفينا بهذه الخطفات العابرة مما يناسب النشر والمكان مع العلم بان شعر الطبيعة قد يؤلف منه دواوين عديدة لمئات الشعراء الذين اثرت فيهم مواسم الطبيعة وجمالها وسحرها وفتنتها ايام الربيع التي تجدد الحياة وتنعش الارواح وتحيي في النفوس روح التعلق في الدنيا ومظاهرها الخلابة .

بغداد   يوسف يعقوب مسكوني

قصة

بقلم الآنسة نجوى قعوار

كان همام اليسري شاباً مستنير العقل، متوقد العاطفة، وبالاضافة الى هذا مخلصاً لقضية العرب يشعر بالمسؤولية التي تمليها عليه ثقافته وعاطفته نحو قومه . وكان ما يحزنه ويدمي فؤاده قضية فلسطين، فكلما حاولت السياسة الغاشمة ان تفرض على عرب فلسطين ما ليس في طاقة اذل مخلوق ان يحتمله اخذ الدم يغلي في عروقه حاراً، واوماضه ان يجد قومه العرب قد بلغ بهم الضعف والاستخذاء لدرجة تبلغ معها نوايا الاستعمار والصهيونية المتمردة ان تخرجهم من ديارهم وتحتل بلادهم دون ذنب اقترفوه او تعد صدر عنهم .

وكان ذلك عام سنه ١٩٣٦ حين وقف في حشد كبير من المتظاهرين في بغداد وقال لهم :

ايها الناس . خفوا لنجدة اخوانكم عرب فلسطين . وان انتم لم تسارعوا الى ذلك فاي ذل سيلحق بالعرب، وهل اذل من ان يخرج قوم من ديارهم صاغرين ليهبوا اوطانهم لاشتات دخيلة . انجدوهم ايها الاخوان فانا اخاف عليكم عاقبة لا ينفع معها الندم ولا يجدي عض البنان .

وبعد ايام كان همام اليسري في جبال الخليل يبلي بلاء مشكوراً ولا يزال زملاؤه ورجال فصيله يذكرون بأسه وشدة شكيمته .

وعاد كل الى دياره بعد ان اعلنت الحرب العظمى الثانية، واوقف البحث في قرارات فلسطين .

ولكن هماماً ما ان سمع بقرار هيئة الامم المتحدة بتقسيم فلسطين حتى عاد الدم يغلي في عروقه، وقد كاد يقضي هماً وغيظاً، وعاد ووقف امام المتظاهرين في بغداد قائلاً ..

« ايها الناس . لن يجدي غير الدم والنار، فسارعوا لتلبية النداء حتى لا يصدق عليكم ما قاله الخليفة علي في يوم الانبار : فواعجباً من جد هؤلاء في باطلهم، وفشلكم عن حقكم — فواحسرتا عليكم — حين صرتم غرضاً يرمى يغار عليكم ولا تغيرون، ويعصى الله وترضون » .

واستبدل همام بكلمة « قبحاً لكم » واحسرتا عليكم .

وكان نصيبه في هذه المرة في الشمال من فلسطين . وما كان اشد سروره ان يجد بعضاً من زملائه واخوانه الاولين يلبون دعوة الجهاد المرة الثانية . وقد قدر له ان يكون مع المناضلين الذين استولوا على « يا هيام » و« جدين » وتم اقام ردحاً من الزمن في حيفا، حيث ابلت فرقته بلاء حسناً في المناورات هناك . وثم . . .

كان يوم « شفا عمرو » حين ارسل في طلبهم لنجدة سكان القرية وكانت قد هاجمتها قوة كبيرة . وهنالك اصابته رصاصة في رجله .

وفتح الجريح عينيه ونظر حوله . وطال عليه الامد ليدرك انه طريح في مستشفى غريب، وان ليس حوله من اخوانه المتطوعين احد . واقتربت منه احدى الممرضات « كيف تشعر الآن ؟ . . » .

وبعد فترة طويلة سأل « اين انا . » — « انت في مستشفى مدينة (س) » . « وكم قد مضى على وجودي هنا . » — « هذا هو اليوم الثالث » .

وحرك رجله، وافلتت من شفتيه صرخة ألم . انه لا يتمكن من تحريكها . وعندها بدأ يتذكر، فقد كان بجانبه احد المتطوعين الفلسطينيين، وهو فتى حدث السن لا يتجاوز الثامنة عشرة من العمر، واسمه عفيف جابر . وقد توطدت بينهما صداقة عظيمة، فقد كان الفتى يؤمن به، ويعجب بجرأته بالجندية، وجرأة قلبه، واستخفافه بالموت، ومهارته باطلاق النار، واصابة الهدف .

ويذكر ان الفتى رمى بقنبلة محرقة نحو اصوات المهاجمين من جهة اليمين ولكن القنبلة لم تنفجر فقد كان مفعولها فاسداً . وليس هذا بالمستغرب فالذين جاهدوا في طبريا وغيرها قد خبروا معالجة القنابل الفاسدة المفعول . اما الفتى فبدلاً من ذلك فقد تلقى رصاصة من مدفع رشاش سقط من جرائها على الارض، فخف اليه يتلقاه بين ذراعيه، واذا برصاصة اخرى تصيبه هو في رجله تهاوى هو الآخر من اثرها على الارض . وكان هذا آخر ما يذكره .

وخف عدد كبير من سكان المدينة لزيارة المناضل العراقي وكلهم يوصي به خيراً ويتمنى لو يحظى بتقديم ما قد يحتاج اليه من خدمة . ولكن لم يكن يسمح الا لنفر قليل ان يزوره ولدقائق معدودات .

وكان التسمم قد بدأ ينتشر في جسمه . وما كان اشد استياء الاطباء عندما عرفوا ان الرصاصة كانت من نوع الدمدم .

واجتمع ثلاثة من الاطباء لتقرير ما يجب عمله . وقال اكثرهم تفاؤلاً . هنالك ١ ./. من الامل

في حياته . وقرر قطع رجله فهو مائت على كل حال .

ومرت ثلاثة ايام والمريض يتأرجح بين الموت والحياة، ويقضي اكثر ساعات يومه في غيبوبة من تأثير « الاثير » الذي كان ينشقه .

وفي صبيحة اليوم الخامس، وقف بجانبه الطبيب العربي الشاب، ولم يكن قد مر على علم همام بقطع رجله الا ساعة من الزمن، وكان رغم نحوله الشديد ، ورغم مـا قاساه من آلام مريرة ثابت العزيمة يبدو في تقاطيع وجهه اسى عميق ولكنه اسى متكبر . وقال الطبيب . « اني والحق يقال اريد ان اهنئك على مقاومة جسمك لقد وهبك الله حياة جديدة . وتمتم لنفسه « ليتني مت في المعركة » .

واجاب الطبيب « يجب الا تقول هذا فالمرء يعيش باصغريه ومن يملك اصغرين مثل اصغريك بامكانه ان يحيا بهما ليس في الارض فحسب بل في الشواهق » . — « اشكرك على ثقتك » .

وخيل للطبيب الشاب ان اطيـافاً جبارة تتصارع في وجه المناضل الشاحب واحب ان يقول شيئاً ، شيئاً جديراً بكبر نفس هذا الرجل ، شيئاً يدخل تعزية حقيقية على نفسه المتألمة ، ولكنه لم يهتد الى شيء ، وسار يتم دورته ، شارد الفكر ، حزين النفس .

وما ان خرج الطبيب حتى دخلت احدى الممرضات وقالت . هنالك آنسة ترغب في مقابلتك — « لتتفضل » .

ودخلت الفتاة وحيته بصوت منخفض ، ووقفت قبالته وقد بان في وجهها تأثر بالغ ، وخالها مرتبكة لا تدري مـا تقول ، وتحركت همته القديمة ، ونفض عن نفسه حزنه الشديد . « اهلاً وسهلاً بك يا آنسة . بودي لو اتمكن ان اقدم الشكر اللائق لـما ابداه سكان بلدتكم الكريمة نحوي من العطف ومشاركة الشعور » .

واجابت الفتاة « نحن اولى منك يا سيدي بتقديم الشكر ، لو كان الشكر يجدي . فتضحيـاتكم هي اعظم واكبر من ان يكافئها كلام الشكر والتقدير . اما انا فقد ارسلني اخي عفيف لزيارتك والسؤال عن صحتك » . ولمعت عينا همام اليسرى « أأنت اذن اخت عفيف ؟ » — « نعم » .

ونظر في عينيهـا ، فرأى فيهما صراحة واخلاصاً وبراءة لا يذكر انه رآها في عيني اي فتاة . كانتـا كبحيرتين طافيتين تعكسان بوضوح ودقة ما يجول في خاطرها وما ينطبع في نفسها — « واين عفيف الآن » .

— عفيف ، انه في مستشفى « الامين » . اظن انك علمت انه قد اصيب برصاصة كادت تقضي عليه ، فلم يكن بينهـا وبين القلب اكثر من مليمترين . لقد بقي تحت الخطر كل هذه الايام .

وفقط اليوم طمأننا الطبيب عنه قائلاً : لقد كان دائماً يسأل عنك، وقد خابرنا المستشفى هنا فـاهتدينا الى مكانك . كيف تشعر الآن ؟ — « بخير ، اشكرك » .

اما الفتاة فكانت تردد في نفسها : اي شعور فياض ، واي نفس كبيرة ، تستفزه ليأتي من عاصمة العراق ليدافع عن بلدهـا الجريح ، ويضحي بهذا الذي ليس بعده من تضحية .

وتكررت زيارة الفتاة ، ونسج خيالها من المناضل العراقي ابهى صور الرجولة الحقة ، والوطنية الصادقة . فهو جبار لا يستسلم للمصيبة التي نزلت به، وهو مع كل هذا لطيف هادىء، شكور لاية خدمة تقدم له مهما كانت بسيطة ، يعبر عن شكره هذا بلهجته العراقية الجميلة ، ثم هو يكبت حماسه الذي لم يطفئه ما حل به من مصاب ، كما وانه لا يشيد بوطنيته ، وانما كانت تفلت منه جمل قصيرة متقطعة ، ان هي الا الاحم مما يضطرم في نفسه . قال : « كنت اريد ان اموت في ميدان الشرف » وحفظت كلمـاته بالحرف وكتبتها في مذكرتها .

اما هي فقد كانت ككل سكان بلدها المنكوب ، مؤمنة بحق الجهاد ، تشعر بواجبها في المساهمة فيما يخفف الرزء عن بلدهـا الجريح . وكانت تلك فترة من الفترات التي اشرقت فيها نفسها وخفقت روحها ، فقد علمتها المصيبة والبلية ان ليس هنالك اجل من التضحية ، وان الذي يظفر بالسعادة الكاملة والكبرى هو الذي يضحي ، ولذا فما كادت تراه وتتعرف اليه حتى رأت فيه كل ما تقدسه وما تؤمن به وما تعمل له ، فان هو الا مثاليتهـا التي نسجتها قد وجدتها مجسمة في شخصه .

كانت تتقرب منه كما تتقرب من هيكل تتعبد له فيه ، وكان قلبها سعيداً بما يستعر فيه من وهج ، اما هو فلم يكن في يومه ما يستحق العيش الا حين يراها تسير نحوه ، فيخفق قلبه لها ، ويتمنى لو يكون هنالك بارقة من امل تسمح له ان يأخذ يدها الصغيرة في يده ويقول لها انها حلم جميل اشرق في حياته في فترة اظلمت الدنيا في وجهه . كان ينظر اليها كما الى زهرة بيضاء نقية تهزهـا انبل العواطف الانسانية وتجمل حيـاتها عطرة عبقة . ولكنه لم يكن ليسمح لكل هذا ان يجرى على شفتيه فهو يعتقد ان عواطفه المضطربة ستقلق راحة هذا الملاك الجميل وتعذب نفسه ، واخـيراً وجد ان افضل ما يقوله لها « وفقك الله » .

ثم هو يرى في الفتاة شيئاً من روح اخيها المتوثبة ومن سذاجته الحلوة ومن سرعة تلبيته للدوافع النبيلة . واذا بكل هذا يعود

فيوهج في قلبه الحماس بعد ان كادت الظلمة واليأس تنالان منه وهو طريح في المستشفى بعيد عن الاهل والخلان ، فاقد لرجله ، يسمع اخبار الغزو الصهيوني وغدرهم في دير ياسين وطبريا وحيفا ، بيناهو قاصر عن ان يساهم بقسطه من العمل . نعم كل هذه كانت اشباحاً سوداء تحوم حوله وتقض مضجعه ، وكان يبدد هذه الاشباح طيف الفتاة الجميل مع زميلاتها من لجنة الاسعاف ، وعندها تشرق تلك القاعة وترتفع نفسه ، ويبدو كل ما عمل لاجله جميلاً نيراً .

وليته كان يدري ان الفتاة هي ايضاً عرضة لحالات من اليأس والامل ، ومن الظلم والاشراق . وانها كانت تجلس الساعات الطويلة تذرف الدمع السخين على ما حل بقومها واقاربها ووطنها ، ثم تسمع اخبار النصر احياناً فتدخل على قلبها اشراقاً واملاً . .

وتضاعف يأس الفتاة عندما توالت الكوارث تباعاً ، وطال الامل على تحقيق الوعود ، حتى كاد هذا اليأس ان يزهدها بالخدمة البسيطة التي تقوم بها مع زميلاتها .

وكانت هي تجد في قاعة المستشفى سبباً من الامل تتعلق به ، وباعثاً من الاطمئنان تلجأ اليه ، فهي ما تكاد تطأ ارض المستشفى وتستعرض الجرحى حتى تعاودها الثقة ويعاودها الندم على نكرانها للجميل . فهؤلاء ثلاثة من الجبل الاشم ، من الدروز الاشاوس وقد اصيبوا في شفا عمرو ، وهؤلاء اربعة من رجال الجيش العربي ، الجيش الذي تميزه الفتوة والخفر والتقاليد العربية الخالصة . لقد اصيبوا في حيفا . وقد سألتهم يومذاك . — « اسلم سلاحكم » .

فاجابها احدهم وكان قد فقد عينه : لقد حطمنا سلاحنا يا آنسة عندما شعرنا اننا سنفقده .

وهؤلاء اربعة من رجال طبريا . واحدهم قائد فصيل . لقد حدثها عن وقفتهم الباسلة في السوق وكيف خسروا المعركة لنفاد الذخيرة ، ولعددهم الضئيل الاعزل .

وثم كان يوم الهجوم على عرب الصبيح : وعج المستشفى بالنساء والاطفال الذين نكبوا برجالهم . وكان اشد ما هز نفسها عندما دخل احد العربان وقال لشيخ الصبيح وكان مصاباً بجروح في رجله — « العوض بسلامتك » . وذهل الشيخ « ومن توفي من اهلي يا رجل » . — « اخواتك الثلاثة » . ورفع الشيخ عقاله وقال « الحمدلله الذي شرفني بقتلهن ولم يذلني بسببهن » .

كانت امثال هذه المواقف وكثير غيرها تجعلها تتدفق حماساً وايماناً واعتزازاً برجال العروبة . وجاء يوم كانت فيه نوبتها لتوزيع العشاء على المرضى . وسارت نحو المناضل العراقي وكانت يداها راجفتين فهي لا تستطيع مقاومة عينيه المائلتين ، وعندما اقتربت منه سألها . — « ما اخبار اليوم ؟ . . . » .

واجابت دون ان تنظر اليه « لقد سقطت حيفا » .

وردد : ماذا تقولين ، وهل حيفا علبة من الكرتون لتتهاوى في مثل هذا الظرف القصير ؟ .

واجابت بيأس « هكذا يريد المسؤولون » . واجاب « أتعلمين اني الآن متفائل اكثر من اي وقت آخر » .

واجابت « انا احسدك على مثل هذا التفاؤل . انا احسدك وانت ترى سبعين الفاً من السكان يتركون بيوتهم العامرة ومتاجرهم المكدسة ، وتبقى متفائلاً » . — وضحك « هذه اول مرة اراك تتكلمين فيها بجدة » .

« طبعاً . لان حيفا هي البحر الذي كنا نصب فيه دماءنا وجهودنا — « لا تجزعي فسيستعيد كل امرىء ماله » .

— اواثق انت من هذا كل الثقة .

وهزت كتفيها كمن لا يصدق . « ان شاء الله » ثم لمعت عيناها واذا بها تقول ان كان لا يزال بين العرب امثالك فبامكاني انا ايضا ان اتفاءل . وعندما نظر في عينيها كان فيهما اعتراف صريح عن ذلك الذي يضطرم في نفسها ، ألى هذا الحد تؤمنين بي .

وفقهت هي الى الاعتراف الذي صدر عنها فبان الاضطراب في ملامح وجهها ، ولاحظ هو ذلك فخف لنجدتها بتغيير الكلام قائلاً : « انت تعلمين ان بين العرب اسود لا تهاب الموت ، وانت تعلمين انهم جميعاً يفدون بارواحهم ، ويتأهبون لنجدتها في الوقت المناسب ، يجب الا تفقدي الثقة بالعرب . فالكل ساهر على نجدة فلسطين العزيزة . الا تثقين برجالات العرب ، والشعوب العربية . »

وكان هذا بمثابة تأنيب لطيف ، جعلها تجيب كتلميذ مذنب « نعم . ليس الذنب ذنب الشعوب العربية ، ولكن الذنب ذنبنا نحن عرب فلسطين . فنحن المسؤولون عن كثير مما نقاسيه الآن . وانا ما قلت هذا الا لان سقوط حيفا هو صدمة عنيفة عصفت بكثير من ثقتنا وايماننا . . ولكن الا تأكل » .

وشرع يأكل ، ولكنه لم يحد بنظراته عنها . وعندما ناولته كوب الماء ، ولمست يداه يديها احست بدبيب في قلبها لم تألفه من قبل .

وعندما عادت الى البيت ، كانت تسير في طريق وعر بين الجبال ، ووقفت تتأمل المرج العظم والجبال الخضراء المتكسية بحلة الربيع ، والسماء الزرقاء التي تبسم لخضرة الربيع ، واحست

ان وهج قلبها يتعانق مع وهج الافق ، وامـام جلال الغروب ، وروعة الربيع ، تدفقت الدموع الى عينيها .. وكأنما رأت اطياف العرب – العرب الذين تعلمت عنهم في دروس التـاريخ يسيرون امامها في موكب عظيم وكلهم موبخ ساخط على الاستهتار بالارض الطيبة ، ورأت بعين خيالها سكان فلسطين جميعاً المتعلم والجاهل القروي والمتمدين ، رأتهم جميعاً يهيمون على وجوههم في بلاد الله، انه لعار ومصيبة ان ترحل هي وقومها وسكان بلدها عن الوطن العزيز والديار الحبيبة ويتشتتوا غرباء منبوذين ليحل محلهم هؤلاء الغزاة السفاحون ، اي عرف يقر هذا الظلم . واي شريعة تبيح مثل هذا العدوان .. ولكن لماذا .. لماذا يجب ان يحدث مثل هذا .. ما الذي سيصيد باطل هؤلاء المجرمين حقاً ، أذلك لانهم – اي قومها العرب – وادعون مسالمون ولا يزال قسم وافر منهم ساذج فقير .. لا .. لا .. فقومهـا لم يرضوا بهذا الذل لحظة واحدة . لقد قاوموه دائما برغم ما هم عليه من فقر وسذاجة . ان الذي رمى بهم في هذه الحمأة هي السياسة الغاشمة ، بل هم جبابرة الغرب الطغاة الذين بمدفعهم وطائراتهم قد خنقوا حرية الشعوب وحقوق الناس .

بمثل هذا كانت تفكر هذه الفتاة اثناء سيرهـا في الطريق الوعر الذي يشرف على التلال والوهاد ، وسمعت نفسها تقول آه يا هيئة الامم المتحدة . لن يكون مصيرك بافضل من مصير سالفتك عصبة الامم . اما نحن فقلوبنا عامرة ، وحقنا بين . وهذه الجبال والوديان ، وهذه المروج والسهول ، وهذه الانجاد والمنخفضـات جميعها تدعونا وهي في دعوتها صادقة ، ونحن في تلبيتنا مخلصون .

وعادت الدموع تهمي من عينيها، ولكنها عادت تطمئن نفسها قائلة : «سينجدوننا . لن يتركونا هكذا . أيسمع اخواننا العرب بكل ما حل بنا ، ولا تتحرك قلوبهم لنجدتنا ، اذن سلام على العروبة .

وتذكرت المناضلين الجرحى في المستشفى ، واشرقت نفسها عندما تمثلت القاعة الكبرى . انها قاعة واحدة ، ولكن فيها من كل قطر عربي ممثل . وفي تلك الليلة عندما اهتزت اعصاب كل عربي لسقوط حيفا ، كانت هي مطمئنة واثقة ، تذكر قاعة المستشفى فان هي الا فيض من النور بددها بالايمان والشجاعة .

وفي احدى الليالي ، وكان نور القمر ينبعث من نوافذ قاعة المستشفى تسرب النوم الى اجفـان همام اليسري بينما هو يرقب مداعبة الشعاع للاشجار المحيطة بالمستشفى . وحلم انه كان يجدق بقاربه في الدجلة ، وكانت هي جالسة معه وقد بدا وجهها شاحباً في ضوء القمر، وكان الهواء اللطيف يعابث شعرها الاسود الاملس، وكانت صامتة لا تتكلم ترقب حركاته بدقة ، وكثيراً ما كانت تمرر يدها الصغيرة فوق يديه وهما تدفعان المجذاف، وثم اخذ بيدها وانزلها على الضفة ، وسار معها بين اشجار النخيل ، وكانت يدها الصغيرة متشبثة بيده ، وعيناها الصافيتان تتألقان كالنجوم ، واذا بهما على شاطىء بحر ازرق صاف واذا بسفينة بيضاء الشراع تقترب من الشاطىء، ونظرت اليه فزعة، فجذبها نحوه، واقتربت هي منه تحتمي به، وكان يسمع آهاتها وهي تتمتم «انا لا اريد ان اذهب» .

وعندما استيقظ في الصبـــاح ناولته الممرضة رسالة من امه ملخصها انها علمت بقطع رجـله وسيأتي ابن عمه قريباً ليأخذه الى دمشق الشام اولا وثم الى العراق . وكأنما هو يستفيق الى عـالم جديد . امه .. ابن عمه .. دمشق الشام .. حياته في العراق هذه كلها كاد ان ينساها .. لقد بدت له بعيدة نائية قديمة .. انها تمت الى عهد من حياته قد انقضى .. والحياة التي يحياها الآن هي حياة جديدة بألمها وفرحها ، بمعانيها ودوافعها . لقد تراءى له انه لم يعرف الا حياة المستشفى هذه ، برفقائه المناضلين الجرحى .. والممرضات اللطيفات .. والطبيب النشيط .. وذلك المـلاك الجميل . انه لا يريد ان يذهب انما يريد ان يبقى هنا يتتبع اخبار الجهاد ، ويتألم لانه لم يعد بامكانه ان يساهم في الجهاد .

وهو يريد ان يبقى هنا ليرى الفتاة التي جعلت حياته تسير في سبيل جديد ، وتتعرف الى خبرة جديدة ، وهو راغب في البقـاء ليرى فلسطين حين يمدها العرب بدماء قلوبهم انها الميدان الذي ستتعانق فيه قلوب العرب جميعاً التي وحدها الجهاد والهدف المشترك، وهو يعلم في اعماق نفسه ان علاقته بالفتاة يذكيها هذا الجهاد وهذا الهدف المشترك . واذن كيف يترك فلسطين حيث الجهاد والحب . لا . لا يريد ان يغادر فلسطين بل سيبقى في قلب المعركة ، يشهد جلاء الجيوش البريطانية عنها ويرقب ماذا سيعمل العرب آنذاك .

وفي عصر اليوم التالي وصل ابن عمه الى المدينة . ووقف الفتى جزعاً امام الهيكل العظمي المسمى ابن عمه «همام» – «نعم يا كمال » .
انا متأسف جداً ان اراك على هذا الحال . لماذا كتمت عنا الخبر كل هذه المدة ، ومنعت اللجنة القومية ان تتصل بنا .
– وماذا كان بامكانكم ان تعملوا .
– ان نطير بك الى العراق لنعالجك ونزفه عنك – لا يرفه عني الا الجهاد .
– ان العراق مجاهد . – أهو مجاهد على النحو الفعال .
– سترى قريباً ولكن انت يجب ان تغـادر هذا المكان .

– اتركني يا كمال لاموت هنا . فلم يبق للحياة من حاجة الي ، سأصبح عبئاً ثقيلاً عليكم جميعاً .

– لا .. لا يا همام فمن جاهد جهادك لهو مفخرة لنا وللعراق . انسيت امك ، – سيكون المها مستمراً وهي تراني على هذا الحال المشوه . – انت مخطىء يا همام فهي فخورة بك ، تنتظرك بلهفة وشوق بالغين . ان المرض واليأس هما اللذان يجعلانك تقول هذا – وتمتم همام لنفسه المرض واليأس وشيء ثالث . – افصح ايها الرجل – ولكن هماماً بقي صامتاً ثم قال « ماذا بالعراق ؟ » .

ألم اقل لك تحفز للجهاد . ان الحماس بالغ اشده ، واخبار الجرائم الصهيونية اغلظت القلوب ولم يعد لنا من امنية الا القضاء على من اقترف هذه الجرائم .

وفي صباح اليوم الذي يليه عندما ذهبت الفتاة الى المستشفى تملكها ذهول شديد ان ترى سريره خالياً . ولم يخطر ببالها الا ان الموت اختطفه وانه نقل الى غرفة الموتى .

ولم تجسر ان تسأل خوفاً من تتحقق مخاوفها . وعندها سمعت الممرضة بقربها تقول :

لقد جاء ابن عمه ، واخذه الى الشام .. لقد ذهب مكرهاً . لقد ارغمه ابن عمه على الذهاب بحجة انه سيكون عبئاً علينا . انه يهديك سلامه وينذر انه سيعود .. ابن عمه ايضاً ضابط في الجيش وسيأتي مع الجيوش النظامية . حقاً انهم ابطال . ولكن الفتاة لم تسمع شيئاً سوى انه ذهب وتركها بعد ان ملأ حياتها . وفي لحظة واحدة بدت لها قاعة المستشفى كمغارة موحشة قبعت فيها هذه الاشباح النائمة . ولاول مرة تمنت الموت لانه سينقذها من هذا الفراغ الكبير الذي اخذ يتصدى لها كيفما التفتت . واطبق عليها اليأس من كل جانب .

ومرت الايام بطيئة متثاقلة ترحف زحفاً بشماً ، وتجر معها حياتها الفارغة هذه . وكانت هذه الايام تضرب العرب بانكسارات مريرة ، فباتوا يترقبون يوم الجلاء بفارغ الصبر ، يترقبون بقلوب راجفة ما بين مشكك من هجوم العرب وما بين موقن ، وما بين متفائل ومتشائم .

وبات هو في العراق يتلفت حوله كالتائه ، يرى حماس قومه فتنتعش روحه ويذكر نضاله في فلسطين فيصدى قلبه ، وتضطرب نفسه ، فكأنما هو قد رشف من كأس فوجدها منعشة مهيجة ثم حيل بينه وبينها ، ولكن بعد ان زاد ظمأه اليه ، وتضاعف ولعه بها . ومن فراشه كان ينظر الى اشجار النخيل ، والى اغصانها وهي تموج كالسيوف ، فيتحرك قلبه بحنين وشوق . وتذكر حلمه . دجلة والنخيل .. وهو .. هذه الثلاثة لا تزال موجودة باقية ..

ولكنها هي .. هي الفتاة التي جعلته يرى في دجلة والنخيل ما لم يكن يراه قبلاً اين هي ؟ .. وماذا حل بها ؟ . واصبح ينظر الى النخيل كانه رسول منها ، والى دجلة كانه سائر نحوها ، وسخر من نفسه فهي لا تعرف دجلة ولا النخيل

وحان موعد جلاء الجيوش البريطانية عن فلسطين ، وكان لهذا اثره في كل البلاد العربية ، وجلس يستمع الى كل محطات الاذاعة وهي تتحدث عن يوم الجلاء ، ونعمة الجلاء ، وبلغ تأثره اشده عندما سمع شيخ الازهر الاكبر يعلن الجهاد ، ويرسل للجيوش الزاحفة كلمات التحية والتشجيع . وفي غمرة كل هذا تناول قلماً وورقة وكتب : عفاف ، اردت ان اكتب اليك منذ عهد طويل لاقول لك ذلك الذي لم استطع ان اقوله عندما كنت طريحاً في مستشفى بلدك ، ولكن في نفسي شبه يقين انك تعلمين ما كنت اريد ان اقوله يومذاك ، وان كنت لا ادري اية ارادة منعتني من ان اصرح لك عن الذي كان يملأ قلبي ولا يزال يملأه حتى الآن .

اما الآن فقد تداعت ارادتي هذه ، وبلغ بي الوجد لدرجة اصبحت فيها كما قال الشاعر « فكأن اعضائي خلقن قلوبا » . اني عندما ارى النخيل يتمايل ، وعندما تهب انسام لطيفة في السماء الجميل ، يتملكني نشوة وفرح شديدان ، فعندها اتخيل طيفك الجميل يقترب مني ، طيفك الذي ملأ حياتي ، وايقظ حياتي ، بل اضفى عليها معاني ولماني جديدة ، فاذا بها ترى الدنيا والحياة جميعاً كأنها جنة فتانة ، اعدت للحب والصبا ومعانقة الارواح .

آه .. لقد فاتني ان اذكر لك اني استنشق في المساء عطراً عبقاً حاراً يذكي فؤادي وينعش نفسي .. واقضي الليل في مثل هذه الواحة الخضلة من الخيال ولكن عندما يجيء الصباح تتبدد احلامي ويستبد بي يأس مرير ، كأنما هو العقاب على ما اجت لنفسي من مسرة وهناء .

ولكن ما لي احدثك عن كل هذا ، بل أيحق لرجل فقد رجله ان يتمادى الى مثل هذه الاماني والاحلام .. كفاني ان اقول لك شيئاً واحداً هو انه لم يبق في حياتي الا هذا الحب العظيم فانا اعيش عليه ومنه ولاجله . أتعلمين في اي ساعة اكتب اليك .. انها الساعة التي سيعلن فيها انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين . بل الساعة التي ستزحف فيها جيوش العرب لتنقذ وطنك بل وطننا جميعاً من مخالب الاجرام والاغتصاب الصهيونيين .

ويحضرني بهذه المناسبة ، جزعك الشديد يوم سقطت حيفا . ارجو ان يكون زحف الجيوش العربية مدعاة لتفاؤلك اخيراً .

انا لا اكتمك اني احس بالم شديد لعدم تمكني من السير مع هذه الجيوش مرة ثانية الى ميدان الجهاد المقدس ، والذي في الوقت نفسه قد يمكنني من رؤية وجهك الحبيب ، وعينيك الصافيتين ، وشعرك الاسود اللامع . اني احسد المناضلين الجرحى الذين سيتسنى لهم ان يروك ويحظوا بعنايتك وعطفك . اتمنى ان اعود واحداً منهم . ولكنها نعمة لم تعد من نصيبي ، ولهذا فارجوك يا عفاف ان تذكريني كلما اسعفت جريحاً . اذكريني كلما رأيت الجيوش العربية تدخل من تحت اقواس النصر . اذكريني كلما سمعت ازيز الطائرات التي قد تمر في سماء بلدك في طريقها الى التأديب . اذكريني يا عفاف في ساعة النصر ، ولست ادعي اني استحق ان تذكريني في مثل هذا الموقف لاي بطولة صدرت عني ، ولكن لاني احبك ان تذكريني في غمرة كل ما هو قيم وجميل ، فانا لم اعرفك الا في ظل انبل العواطف الانسانية ، واشدها اشتعالاً وعظمة .

واذا كان المناضل الذى سيظفر بعنايتك عراقياً ، فاعتني به عناية بالغة لاجلي انا . انا الذي اقبع في عقر داري عاجزاً عن تلبية صوت النفير . اعتني به لاجلي انا . انا الذي يحدق بدجلة والنخيل ويسمح للخيال ان يعبث به ، لان لم يعد له من ملاذ الا هذا الخيال .

يا عفاف ، لقد سمعت مرة شاباً تحت نافذتي يقول اصاحبه عني : مسكين لقد فقد رجله . وعندها قلت لنفسي . . وقلبي ايضاً ، لقد خلفته هو الآخر في فلسطين ، اني اقول لك هذا انت التي عرفت بواسطتك عظمة الحب وروعته . وداعاً يا عفاف ، اقول هذا بينما تتألق النجوم في السماء ، وكأنها فتيات رفيقات ترق لحالي . بل اقول هذا بينما تنتهي صفحة من تاريخ بلدك . . صفحة جعلها الانكليز دامية شائكة .

ولهذا فستكون صلاتي ان يجعل الله فجر هذا اليوم فاتحة عهد جديد تتوجه الحرية والاستقلال . سأرسل كتابي هذا مع ابن عمي الذي انتزعني من فلسطين ليذهب مكاني . اذكريني يا عفاف فقد تنفع الذكرى المؤمنين .

همام اليسري

وفي الصباح عندما جاء ابن عمه ليودعه ، وليأخذ منه الكتاب الذي وعده به قال له همام انتظر حتى اكتبه ، وكان في عينيه حيرة وحزن وألم . اما الكتاب الذي تسلمته عفاف فكان .

حضرة الآنسة الفاضلة عفاف جابر المحترمة :

تحية واحتراماً ، اغتنم مناسبة سفر ابن عمي الى فلسطين لاحمله كتابي هذا ، وغايتي الاولى ان اعتذر اليك عن عدم تمكني من تقديم شكري لك شفهياً ، وذلك لان سفري جاء مستعجلاً ، ويعلم الله اني كنت ولا ازال حريصاً على ان اعبر لك عن عميق شكري وتقديري لما ابديته انت ولجنة الاسعاف من اهتمام وعناية بالغين بي . حياكن الله ، وشد ازركن ، وحقق امانيكن ، واماني العرب جميعاً :

اما فلسطين الحبيبة ، فها هي اسود العرب جميعاً تسير نحوها مزمجرة هائجة . نصر الله فلسطين العربية ، وابقاكن ذخراً للوطن .

صحتي تتحسن تدريجياً ، واصبح بامكاني ان اركب السيارة التي تسير بي على ضفة الدجلة وبين مزارع النخيل ، في اصيل كل يوم ؛ وهذا راجع الى عنايتكن الفائقة بي ، وسأذكر دائماً عطفكن واهتمامكن ، وادخر هذه الذكرى سبباً يقربنا .

واذ اكون في انتظار اليوم الذي يسترد فيه عرب فلسطين حقوقهم وتخفق فوق البلاد المقدسة اعلام الحرية والمجد والسلام . . اذ اكون في انتظار كل هذا ارجو لكن جميعاً مجالاً للعمل على النحو الذي يرضي ضمائركن في خدمة الوطن المفدى .

المخلص : همام اليسري

ورفعت عفاف عينيها نحو الضابط العراقي . وكانت عيناها مضطربتين حائرتين تعكسان الوحدة والالم الشديد . .

لقد تمنت ان يكون كتابه على نحو آخر . . نحو يتلاءم وما في نفسها من شوق ولهفة ووحدة ونظرت عفاف من النافذة فرأت الطريق الوعر والمرج والجبال ، كما تناديها دائماً ، ولكنه نداء لا يستجاب فنفرت منها . . . كما ينفر المرء من مقبرة مظلمة . . ان الجنة ليست هنا انها حيث دجلة والنخيل .

ونظر الضابط الى الفتاة فخيل اليه انه رأى هذه النظرة الحائرة المضطربة التي تحدث عن الوحشة والحزن والوحدة في وجه ابن عمه عندما ناوله الرسالة ، لا شك انه امام نار مقدسة .

وسألت الفتاة « وكيف هو الآن » ، وهو لا يدري ما الذي حدا به لان يجيب هكذا « آه . . . همام انه يحارب ما في نفسه بجبروت وقسوة . . همام . لقد فقد شيئاً ثميناً او الاصح انه وجد شيئاً ثميناً بعد كفاحه وقلقه المتواصلين وعليه ان يجاهد ليحتفظ به .

ولعل الفتاة فهمت ما يريد ان يقول الضابط العراقي فأجابت « تعني ان جهاده في فلسطين ، وفقده لرجله قد سبب له كل هذا » .

واجاب الضابط العراقي « نعم . . الجهاد ووحي الجهاد هما اللذان خلقا هماماً الجديد » .

وعندما اوى الضابط العراقي الى مخدعه احس انه مر عن سلسلة ذهبية اولها في العراق وآخرها في فلسطين .

فلسطين — نجوى قعوار

مشكلة اللغة العربية

بقلم فؤاد الونداوي

اله

امتداد تعاليم اللغة العربية القديمة وضوابطها وقيودها ، الى العصر الذي نعيش فيه ، ان دل على شيء. فضياع شخصيتنا وفقر الانتاج في ديارنا وانعدام النبوغ بين صفوفنا . اذ انه من المستحيل في افق اللغة ان يرسخ اصل او تنهض قاعدة من البداية الى النهاية ، وان ارتبطت لغة العصر بما انتجه الاسلاف من قيود وحدود ، فذلك دليل على ركود مصيره الى الفناء ، شأنها في ذلك شأن الجسم الحي الذي يموت اذا امتنع عليه النماء ، وتعذرت اسباب التوالد .

فمن الحقائق الثابتة في عالم اللغة ، ان القواعد التي يشرعهــا اللغويون في امة ما ، وينزلها ابناء تلك الامة منزلة المعيار الصحيح للكتابة والخطابة ، لا تظهر الى الوجود الا بعد أن تهدأ احوال اللغة وتستقر اوضاعها على نحو معين ، ولا يستشف المشرعون هذا الاستقرار الا من الالسنة التي تدور عليها تلك اللغة . وعلى هذا فليست وظيفة المشرع اللغوي هي الخلق والابتكار ، بل الاثبات والاقرار ، وكل محاولة تهدف الى الخروج على هذا المفهوم تلقى ابداً نصيبها المحتم من الفشل والخذلان[1] .

اما لغتنا العربية الحالية ، فهي لغة معاجم قبل ان تكون لغة ألسنة ، وهو السبب الذي مهد لبعد الشقة بين كلامنا وكتابتنا . فقد حرصنا على التمسك بقواعد وقيود لغوية اقرهــا فقهاء اللغة وعلماؤها قبل عدة قرون لضرورة اقتضتها اوضاع العصر آنذاك ، حيث جعلوا من هــذه القيود اللغوية التي تحتمها ظروف سياسية او اجتماعيـــة معينة ، ليس من المحتم ان تخضع لهـــا لغة عصر آخر تختفي فيه وطأة تلك الظروف بالمرة . ومـــع وضوح هـــذا المنطق وظفره بتأييد غالبية مفكري العصر وعلمائه ، فـــا زال ثمة فريق من المتزمتين الذين لا يتحرجون من انكار هذه الحقائق ، فيقفون في طريق كل محاولة اجتهادية تهدف الى اصلاح العربية وتنظيم شؤونها .

اما ان لغتنا بحاجة الى اصلاح ، فهذا امر لا يقدم على انكاره الا من اغلقت الغفلة بصيرته وذهب التعصب المقيت برجــاحة عقله . لاننا لا نخلع صفة القصور على لغتنا جزافاً ، بل لتحققنا من اخفاقها عن مجاراة روح العصر ، وانتباهنا الى عجزها عن موافـاة مطالب العلوم والفنون الحديثة ، فضلاً عن اجتماع سائر العيوب والنقائص في صلبها . وسنحاول فيما يلي الالمام ببعض النقائص والعيوب التي تهدد دعوات المنادين باصلاح اللغة العربية وتهذيبها .

١ — فمن ابرز مظاهر حيوية اللغة وسلامتها ، كونهـــا لغة كتابة وكلام في آن واحد . ولكن المواطن العربي يلمس اختفاء هذه الظاهرة من لغته ، فهو يكتب بغير ما يتكلم به . وفي ثنايا البحث عن اسباب امتناع توحد لغتي الكلام والكتابة في لغتنا الحالية ، نلمس قصور العربية الفصحى عن موافاة مطالب الفنون والعلوم الحديثة .

٢ — وقدنوهنا فيما سبق بان القيود تفرض على اللغة لضرورات تحتمها ظروف معينة ، وعلى هذا يتحتم تقيد هذه القواعد والضوابط بعامل الزمن . ولكننا ذهلنا عن هذه الحقيقة ، فظلت لغتنا تخضع لنفس القيود والضوابط التي حتمتها ظروف قرون خلت ولم يبق لها اثر ما في هذا العصر ، ومن هذه النقطة بالذات اصقت صفة الجمود بلغتنا الحالية .

٣ — ونتيجة لخضوع لغتنا لهذه القيود الغريبة التي استوجبتها ظروف رقدت في ثنايا التاريخ ، صار المواطن العربي يفهم ويكد في سبيل هـــذا الفهم لكي يقرأ قراءة صحيحة ، على عكس ابناء سائر الامم الذين يقرأون لكي يفهموا فهماً صحيحاً ، وفي هذا الموضع اشتد ضيق المربي الفاضل معالي الاستاذ عبد العزيز فهمي باشا فقال كلمته المأثورة « ليس لدى المسلمين وغيرهم من اهل البلاد العربية وقت فائض يصرفونه في حل الطلاسم » .

٤ — وبفعل هذه البلبلة التي شملت قواعد لغتنا ، اضطررنا الى استعمال الحركات بدل الحروف المصوتة وفيها — اي في الحركات — ما فيها من العيوب الفنية التي تعيق مهمة الطبـــاعة التي تضيق بعملية الجمع بين الاشكال والحروف ، وسائر العيوب الصحية التي تؤذي النظر وتتعبه ، اذ تقسره على التنقل بين ثلاثة خطوط متوازية في قراءة الجملة الواحدة .

٥ — اننا ما زلنا نلاقي في تعلم لغتنا من العناء ما يجارى القدر الذي نعانيه في تعلم اية لغة أجنبية . ومرد هذا فيما نعتقد ، الى الاصول العتيقة التي تخضع لها كل كلمة ، دون ان تهضمها افكارنا او تستسيغها عقولنا . وحتى الذين يبلون هذه الاصول ويلمون بها بدقة ، لا يسلمون من المشقة والعناء ، فهي تضطرهم — وهم بسبيل التعبير عن افكارهم واختلاجات اعماقهم — الى ان يفكروا مرتين ، مرة ليدركوا الاحساس او الخالجة ادراكاً عميقاً

(١) يؤيدنا في هذا الرأي معالي الاستاذ عبد الرزاق السنهوري باشا في محاضرة القاها بالمجمع اللغوي اخيراً . وكذلك الاستاذ المازني في مقال له بمجلة أخبار اليوم المصرية ، فضلاً عن السند الواقعي الصريح الذي يتجلى في الفشل المتكرر لمحاولات المجاميع اللغوية في هذا المضمار .

حاسماً ، ومرة ليحتالوا عليها حتى تسكن الى اللفظ الملائم . وفي هذا من الارهاق والتعسف ما ليس منه لغير الناطقين بالضاد حظ او نصيب .

٦ – اما عن عجز لغتنا الحالية عن تأدية اغراضنا الادبية والعلمية والفنية ، وتعلقها بمواضيع غير ذات علاقة بشؤون الحياة العامة ، تلك الشؤون التي يوجه اليها الناس جل اهتمامهم ويصرفون فيها معظم جهودهم ويوجهون نحوها أخص عنايتهم ، فلانها لغة بداوة في حين اننا نعيش في عصر ثقافته هي بنت الحضارة الصناعية .

٧ – واخيراً وليس آخراً . . هذه المترادفات الكثيرة التي تشوه مهمة اللفظ الرئيسية – وهي استحضار صورة المسمى او الشيء في الذهن – وتجعله مخذولاً في التعبير عن العواطف التي تجيش في الصدور والآمال التي تعج بها الاخيلة والخلجات التي تهتز بها المشاعر .

وبعد . . الا تبرر كل هذه العيوب والنقائص ، دعوات المنادين باصلاح اللغة العربية وتهذيبها ؟ ان فريقاً من المترمتين ما برحوا يعلنون بان من يطالب باصلاح العربية وتهذيبها ، لا يفعل ذلك حباً في خير هذه اللغة وصلاحها ، بل لعدم قدرته على التبريز والاجادة في مضمار اللغة الفصحى بوضعها الراهن (٢) .

وعندما نحقق في ذاكرتنا اسماء الكتاب والمفكرين الذين ساهموا في هذه الدعوة بصورة فعالة ، نجد على رأس القائمة اسماء كريمة لها منزلتها ومقامها في عالم اللغة والادب ، نذكر منهم على سبيل المثال الاساتذة : المرحوم قاسم امين ولطفي السيد ومحمد فريد ابو حديد واحمد امين وسلامة موسى واحمد زكي واسماعيل مظهر وغيرهم . فان رضخنا لمنطق الزعم القائل بان هؤلاء جميعاً يدعون الى اصلاح العربية لعدم مقدرتهم على الاجادة والتبريز في مضمارها ، فمن نعني اذن بالمجيدين ومن يكون المبرز في الادب العربي المعاصر غير من ورد ذكره هنا .

وصفوة القول ان لغتنا بحاجة الى اصلاح شامل سريع ، يهدف قبل كل شيء الى ضمان اسلوب للكتابة العربية يكون اقرب الى كلام الافراد منه الى معاجمهم وكتبهم الصفراء ، وانه لمن المشين حقاً ان نجد بيننا من الكتاب من تلتبس اساليبهم باساليب ادباء سبقوهم بثلاثة عشر قرناً في الوقت الذي لا نعثر فيه على اديب اوربي واحد يلتبس اسلوبه باسلوب كاتب سبقه بثلاثة قرون فحسب .

فلنثق بان ما بلغتنا من حيوية سوف تبقى بقدر كونها لغة متداولة ، لان اللغة لا ترث الحياة عن لغة سبقتها ولا تستمدها من القواميس والمعاجم ، وكما اننا لا نرث ارواحنا عن اجدادنا ولا ننميها في أجسادهم ، كذلك لا ترث لغتنا روحها من أجيال ادبرت وبادت ، بل تحيا على افواه الناس وبذلك تحيا في كتاباتهم وآدابهم واشعارهم ، سواء انت بها المعاجم او لم تأت .

بغداد **فؤاد الونداوي**

(٢) من بواعث الاسف حقاً ، ان مناوئي حركة الاصلاح اللغوي عندنا ، يتوسلون في ايامنا هذه في سبيل دعم فكرتهم والنيل من خصومهم ، بانكر الوسائل واحط الدلائل . فالاستاذ (الجاحظ) مثلاً لا يحجم في (الرسالة) عن اتهام الاستاذ الجليل الدكتور أحمد امين بتهمة العمل لصالح الاستعمار الاجنبي بسبب دعوة اديبنا الكبير الى اصلاح العربية وانقاذها من وهدتها .

والاستاذ محمود الغمراوي يسارع بدوره الى نعت حركة الاصلاح هذه بالفساد والسفه والغفلة ، لمجرد قول (المانشستر غارديان) عن حركة اصلاح العربية بانها من : « ضروب الرقي العديدة التي سطعت في مصر اخيراً وابعدها أثراً على الاطلاق » .

الفتى العربي

من وحي مقال « ايها الادباء »

●

وذبلته ذبول
فغفا غفوة ! .
واطرحته فزعة
فادلج دلجة ! .
غفوة هجوع . . .
دلجة هجود . . .
وهجوعه ! ما كان موتاً !
وهجوده ! ما كان ضلة !

***

بقية من منعات
حارس – اموره –
بالشدا من عزمات
عالج – بروكه – وانتفض :
يريد الانطلاق . . .
يريد الانفلات . . .
انتفاخة البطولة !
الى دنيا جديدة . . .
الى عالم جديد :
التسامي ، العلاء ، الحياة . . .

***

وامتهد من محنته درس بقائه ،
وترسل مناسك نهوضه ،
عبر اشتات ابلائه !
وعلى يديه :
نشأت الوية الحق والجمال
والكمال . . .
تختنق في اجواء عليائه ،
وبضي . . .

***

فيوقد في عرس ميلاده ،
افراح . . . تفتحه للحياة . . .
بين رقصات النور ؟
شعلة البعث . . .
تمزق حجب الديجور !
اقترب « الوعد » الحق

***

وبأيدي لمة اخلاط باغية !
في عصي شياطين بُرُم !
لألويته
تنبري خرق بالية !

***

وعلى مسرح الوجود . . .
لوجه الانسانية الذاهلة ،
تعتلج الألوية والخرق !
الى امد وتعترك !
لتتلاشى الخرق
وتبلى !
فتنطوي ! .
وصباح الليل
يضحك
للفتى العربي
الى الأبد . . .

الشغال **سلمان امود**

نشيد الانشاد

من ملحمة عن فلسطين

انــي نرجس شارو   ن ، سقى المزن نديّه
انــي سوسنة — قد   حفها الشوك — نقيّه
لوحتني الشمس سودا   ء ، ولكني بهيه
تلك أثوابي من العط   ر كلبنــان شذيه
نوّر الرمــان للعص   ر ؛ وفي الكأس بقيه
قلت للناطور : هذا ا   لكرم قد القى جنيّه
نمت عن ثعلبه ، فاتر ك   ه .. او فافر فريّه
جاء في الليل حبيبي   ملقياً لي بالتحيه
كان خداه كأثــلا   م رياحــين زكيــة
بطنه كالعاج ، من غـ   لف بالياقوت زيه ؟
مد يمنــاه الى كـ   وة بابــي بشهيــه
فاذا الاحشاء من حظ   وتها ترقص فيّــه !!
أشبهت عيني — على جد   ولها الجاري — حمامه
جلست في الوقي بعد ا   لغسل ، ترعى مستهامه
انا سورٌ ، قــام ثديا   ي كبرجين أمــامه
قد براني مرض الحـ   ب ، فمن يشفي سقامه
يا ظباء العقل من حر   مون ، يرعين وشامه !
من رأى منكن من أه   واه ، يجري خلف رامه ؟
ليتني في بيت خمر   بيدي أملأ جــامه
صرة المر حبيــبي   لي .. ما احلى ابتسامه
شفتــاه سلكة القر   مز ، والبطن رخامه
كلــه مشتهيــات   جُعل المسك ختامه
هوذا آت مع الايـ   ل ، فــاسمعن بغامه
وطّأ الحب له مــا   بين ثديي مقــامه

البحرين   ابراهيم العريض

الربيع الحزين

الى الاستاذ ميخائيل نعيمة

ربيع مضى .. ثم هذا يعود   وما في حياتي معنى جديد
صحت بسجن المآسي حتى   بكى القيد مني ... وناح الحديد
تحييك يا زهرات الربيع   دموع تضيء بهن الخدود
شبابي خريف جفته الاماني   وماتت بعرس شذاه الورود

صحارى يطل عليها السكون   كعين من الموت فيها الوعيد
وافق بعيد طوته الدياجي   رحيب ولكن دجاه القيود
ودوح تهيم .. ولكن الى م ؟   فليس وراء الخفايا حدود ؟
هناك وراء الغيوم بعيداً   ضلالت السرى أيهذا الطريد

القاهرة   محمد الجبار

عبودية

مهداة للدكتور الصديق عبد الرحمن بدوي

عبدٌ .. !
اكاد اثور لكني
احس الغل في اذني
يولول هازئاً مني
ويصرخ ضاحكاً .. عبد
عبدٌ .. !
انا الخالق انساني
انا الهادم والباني
انا ربي وشيطاني
اتحسب ايها القيد .. ؟
فتمتم ساخراً .. عبدُ
عبدٌ .. !
اكاد اجن يا نفسي
أأنتِ .. أأنت يا حسي
اهذا العالم الانسي
الذي ألقى به المهد
ويطوي شعثه اللحد
هو الصارخ .. يا عبدُ
عبدٌ .. !
انا العائش في ظلي
انا الموت بلا شكل
ترى .. من انت يا غلّي
فعاد الصوت يشتد
كأن عصافة تعدو
باذنيّ وتربد
انا انت .. انا العبدُ

بغداد   بلند الجيدري

افعى

في رهبة السر، عاشت   وارهفت شفتايا
وزحمة الليل، أسرت   واوغلت مقلتايا
وفي السحيق ضريح   تحره نجوايا
وفي الغيابة، افعى   صكت، على، الزوايا
كوني، كما شئت، كوني   فلن تكوني سوايا
قطرت فيك سمومي   تركت فيك صدايا
يا لحة، من جحيم :   ويا خيال خطايا
ويا حطام صليب.   ويا ركام ضحايا
لا تقنطي من شحوبي،   ولا ترعك النوايا
بعضي، يواكب بعضي   والشعر، ملء دمايا!!

حمص   عبد السلام عيون السود

ظمأ

يا ظمأ يشهق في مزهري   بالنغم المحترق الأنور
يدب في الاعماق مستهيماً   ويطلق الانفاس من مجمر
ويفجر الحمّى على خاطر   يهيم في منطلق مقفر
هات، من النار، ومن حاصب الانواء، ما شئت، ولا تذخر
وصب ويلاتك، مشبوبة،   على ضمير شارد مصحر
لولاك لم ينهد الى ثورة   تهب في ظل الوجود السري
لولاك لم يشمل بألحانه   مترعة بالالم العبقري!
ولا زهاه النور في سكرة   تهزأ بالازمان والاعصر!
يا ظمأ اهوى على مدمعي   فغار، وانسل الى المحجر
أحلامي البيض، على راحه   صرعى، بغير السم لم تسكر
والبحة السوداء، مل، الصدى   ما برحت، كالحلم الاخضر!
تطغى، فينداح، على رجعها،   خرير نبع الواحة الكوثري،
وتسفر الاشواق عن زوغة   موحشة في السفر الاغبر.
يا للاساطير!! تكاد الرؤى   تمتح أعراقي.. ولم اشعر.
أخرست أناتي، وقلت الضحى   يا وقدة التيه. وهيا اثاري!
وغلت ايامي إزاء المدى   ألوب دون المعبر المذعر،
وأدفن الاوطار.. الا هوىً   من ظمأ الروح الى المضمر!

بغداد   محمود البريكان

حياتي

مهداة الى الشاعر ابرهيم العريض

قيل لي ما اسمها، عرفتاك صبّاً   يتصبى الحسان بالاغنيات!
هي (اسماء) تارة وهي طوراً   (هند) او (ميّ) درة الغادات
وهي (نجلا) اذا اردت و(سلوى)   وهي (نجوى) هات الحقيقة هات
قلت مهلاً! فلست ادري جواباً   لحديث يفيض بالترهات
ضلة! فاسمها يضن بذكرو   ه لساني، ولا تبين لهاتي!
ما اسمها؟ انه ترصع في القلب   فنوناً تعيابها كلماتي
ما اسمها؟ انه ترقرقَ في النفـ   ـس غذاء تسمو به خطراتي!
هي كل الحسان حساً ومعنى   وهي كل الجمال للنظرات!
هي سر الربيع في الكون يسري   فائر الشوق عبقري السمات
وهي انشودة يرتلها الرو   ح وتنساب في دمي خفقات!
هل لهذي الحياة غير مسمى   واحد؟ انها لجسمي حياتي!

مكة   حسن عبد الله القرشي

بلادي

أغاريد ملء المدى   ولحن بعيد الصدى
وأطياب كوخ عتيق   مغمس بالندى..

بلادي

أزاهير سكرى جمال   وارجوحة من ظلال
وانفاس طفل بريء.   يغرد فوق التلال..

بلادي

انسكاب الشعاع الندي   من الافق الأبعد
وعين ترود الغيوب   لتبصر ما في الغد.

بلادي

على مقلتيها امل   يرفرف غض القبل
.. وتفنى صبايا الوجود   وتبقى كسر الازل..

بلادي

اذن الفتح، في منائرها الشم، زهياً، وجلجل الناقوس
وانحنى الدهر طيعاً تتلاشى عزمات من اهله ونفوس
ملعب للجياد، للاسيف الشرع كانت رقابهم والرؤوس
... والحنان الكريم سال رضياً كم تمنته في الملاء الشموس
حلم في الصدور، يخفق، تحدوه رغاب على الخنوع تدوس.

من بلادي طاف مصباح الهدى
ينثر الحق سلاماً وحنانـا
وعـلى مقلته دنيـا ندى
تردع الحب جمالاً وافتنـانا ..
هي في غفوتهـا ذاك الوديع
ضاحكات باسمـات مقلتـاه
واذا ما لوّحت دنيا البخيع
نفضت جفناً ، وقامت للحياة ..

دمشق — محمد شمس الدين

اهواك

لا تشتكي عبث الزمانْ — ومرارة الحب المهـانْ

حبي وحبك والحيـاة — وكل دنيانا .. دخان

لا تشتكي لو قنّعت احزاننـا — وجه الصبـاح

أحزاننـا احلامنـا — من بعد ما صارت جراح

لا تضجري او تعول الاقدار في — بابي وينتحب القضاء

لن تترك الاقدار باب حيـاتي — المرصود الا في المساء

لا تسأمي همس الظلام — ووقع اقـدام الرياح

هذي مآتم حبنـا — هل تفزعين من النواح ؟

لا تسألي اين الامـانى — في محياك الطروب ؟

ماتت كما مات النهار — ولم يحن وقت الغروب

لا تسألي عـن قصتي — لا تملئي الايام شكوى

انا في يد الاقدار روح — هـائم لم يلق مأوى

لا تذكري الماضي فقد — جرعته كأس الزوال

ونثرت فوق رباه اشواكي — وصممت الظـلال

لا تسأليني عن غدي — فلكم تراود في خيالي

هو مثل روحي في ضميـر الدهر — عبد لليـالي

لا تسألي عن حيرتي — انا عبد اشجاني وضحكي

أذبلت أحلامي وكانت — جنتي فظللت ابكي

لا تسألي عن حبنـا — فجراح قلبي من هواي

اهواك – يا للكائنات – — وكل مـا اهوى بكـاي

اهواك في قلبي جراحاً — تردع البلوى بدربي

أنّى مشيت ارى خيالك — قائماً وجراح قلبي

اهواك لكن في ضلوعي — حرقة لهـوى جروحي

انا عبدُ اوهامي وعبد — طفولتي وجنون روحي

اهواك لكن في دمي — نارٌ تجوع الى الرمـادْ

اهواك لكن كم لبست — من الهوى ثوب الحداد

القاهرة — غائب طعمة فرمان

خريف عذراء

تقول حبيبي .. ايفنى الصبا — وتهرق في الفجر اكوابنا ..

ويمضي الربيع . .ويأتي الخريف — وتذوي مع الورد أعشابنـا

ونبقى هناك .. وراء المدى — وفي زرقة الافق محرابنـا

نعيش لنسمع لحن المسـاء — وتسبح في الغيب اهدابنـا

ونبني البيوت . .وراء السحاب — وللنور .. تفتح ابوابنا ..

كفـانا نسير بدرب الغيوب — وينعم بالحب .. اصحابنـا

حبيبي . .اخاف رياح الخريف — اذا تهجر الكرم اعنابنـا

***

فقالت .. تعالي الى كوخنا — هنالك – يا اخت – احبابنا

هنـاك تغرد زرق الطيور — وتورق .. في الروض احطابنا

تعالي .. هناك على المنحنى — يردد همس الهـوى غابنـا

ونقطف في الدوح زهو الربى — فتفنى .. مع الطل اتعابنا

اتخشين أنت سهام الحياة ؟ — ومن دون سهم الورى بابنا

تعالي .. فلسنا نهاب الخريف — ستهزم دنيـاه اعصابنـا

***

نتيـه .. ونمرح في بهجـة — ويشقى على الترب اترابنـا

ونخـلد نحن بصدر الزمـان — وفي الكون تشرب انخابنـا

دمشق — عبد الكريم السمان

قبلة

لا تقولي : « هو الزمان طوانا » — نحن في قبلة طوينا الزمـانا

نحن في عالم الوجود أمـانِ — نحن أحلامنـا ونحن هوانا

لا تهابي الردى فلسنا جسوماً — نحن إنشـادنا ولسنا ثرانا

فاذا الكون بات منـا خلياً — كان ملء الفراغ رجع صدانا

لا تبالي بمـا تعد الليـالي — ولو الحب يا سعـاد لوانا

قد قضينا الهوى ضلالاً وغياً — وتركنا الهدى لقوم سوانا

انمـا العمر قبلة فتعـالي — نحتسيها وكل شيء فدانا

وديع ديب



عمر ابو ريشة – شعر

للاستاذ عمر ابو ريشة – ٣٠٠ صفحة – منشورات دار مجلة الاديب – بيروت

نشرت الجريدة السورية اللبنانية الغراء التي تصدر في بونس ايريس بالارجنتين هذا الحديث الماتع الذي ادلى به الشاعر الاستاذ جورج صيدح الى الاستاذ جواد نادر رئيس تحرير الزميلة المذكورة. وقد ارسل الينا الحديث بالبريد الجوي فآثرنا نشره:

«تفضلت مجلة الاديب الراقية فاهدت هذه الجريدة نسخة من ديوان نفيس اصدرته في شهر تشرين الاول المنصرم تحت عنوان:

«عمر ابو ريشة – شعر»

فشكرنا لمجلة الاديب تلطفها وعنايتها واثنينا على جهودها المتواصلة في سبيل نشر الادب الصافي في الاوطان وفي المهاجر. وهذا الديوان بحلته الانيقة الشائقة هو ثمرة طيبة من ثمرات تلك الجهود وخدمة تذكر فتشكر من خدمات دار الاديب.

وقبل ان نطالع الديوان، دفعنا به الى صديقنا الشاعر جورج صيدح – وهو العارف الخبير في الموضوع – وسألناه مراجعة الديوان وابداء رأيه فيه. وقد فعل الصديق ولكنه رد الكتاب الينا غير مصحوب بمقال مكتفياً بالتقريظ الشفهي الذي لا يشفي غليلنا ولا يحقق رغبتنا باذاعة فضل الناظم والناشر. فعمدنا الى احبولة الحديث الصحفي واخذنا بطرح الاسئلة على الاستاذ صيدح وبتدوين اجوبته. فجاءت الاجوبة كافية وافية تفصح عن تأثيرات شعر ابو ريشة في قلب الشاعر – وفي قلب كل شاعر – وعن جلالة قدر الديوان من حيث العاطفة والفن وحسن البيان. وها هي خلاصة الحديث نضعها امام انظار القراء. ونظنها تفيدهم وترضيهم.

– ؟؟؟.

– هذا شاعر مجيد، اتى بالرائع الجديد، دون ان يُغرق او يَغرق في سيل «الرمزية» الجارف. انضم الى صفوف المعجبين به بلا قيد ولا شرط واترك مهمة النقد والتحليل للكتّاب الاكفاء. وما انا منهم.

في شعره لذة تغمر النفس كأنه نسمة عابقة بالنعيم. وفيه فتنة تحرك العواطف وتنتزع اعجاب القارىء. فلا ينتهي من مطالعة قصيدة من قصائده الا وهو يردد – الله اكبر. ان من البيان لسحراً.

– قرأته بكامله؟

– اخذت منك الديوان وفي نيتي تصفحه المساء بعد العشاء ريثما تحين ساعة السينما. فاذا بي اعدل عن حضور السينما واقضي ليلتي مع عمر ابو ريشة. ولم اندم. يشهد الله.

– مواضع النقد؟

– لم اجد ما انتقده في ٣٠٠ صفحة. ولم اقل في نفسي ليته ما اثبت هذه القصيدة او ليته استغنى عن هذا البيت. بل كثيراً ما اسفت على قصر قصيدة كبح نفسها العالي بينما هو آخذ في التحليق. فاستعدتها مراراً لاجعلها اطول. هذا قول لا يصدق على كل ما ينشر للشعراء اليوم. وحسبي به دليلاً على رأيي في الشاعر وعلى وقع شعره في نفسي.

– مواضع الاجادة؟

– اجود ما ينظمه ابو ريشة هو الشعر العاطفي. هناك طابعه الخاص البارز. اسمع الى ما يقوله امام تمثال حجري وقد ذكر حبيبته وخشي ان يزول جمالها:

اخشى تموت رؤاي ان   تتغيري ... فتحجري

ثم قوله:

قبليني، فقد شعرت بروحي   وثبت وارتمت على شفتيا

وحديثه عن نفسه بلسان البلبل الاسير:

كم اطبقت منقاره غصة   فمدّه ينقر في قيده
اسقمه العيش على وفره   لما رآه ليس من كدّه
ابى عليه الكبر ان يورث   الافراخ ذل القيد من بعده

وحديثه عن قلبه:

ما اعتاد ان اروي له غلّة   الا اذا كان لي المنبع

وفي مواقف مختلفة:

انا بسمة الحلم المطل على المنا   ومدامع الامل الشرود الكابي
يا رب عاطفة وراء جوانح   خرساء ابلغ من ارق خطاب

***

انا في السراب اروض الحياة   واشرب حلم الصبا في السراب

***

انا في شجيّ العمر تحملني   يد الزمن الحلي

وكم نشيد مسكر من في ... قاطعته ، فاخضل من مدمعي

***

رب شاد على اظما اسلم ... الروح وروى الاجيال نبع بيانه

وما احبها كلمة « انا » ان صدرت من الشاعر كاشفة خبايا فؤاده مترجمة رموز اقواله وهمسات خياله . فللقراء شغف بالتعرف الى شخصية الشعراء المستترة وراء الخيالات والرموز فلا ينعون عليهم ترديد كلمة « انا » الثقيلة .

والى جانب هذه الآيات في الرقة، له ابتكارات في الوصف ، الى حد الاعجاز .

– امثال منها ؟

– الامثال كثيرة لا يتسع لها صدر هذه الجريدة . ولكن لا بد من نشر بعضها حتى يشاركني القراء في الاعجاب ويعفوني من عبارات التقريظ المبتذلة . فشعر ابو ريشة يقرظ ذاته .

اتعلم لماذا ينتفض رأس الطلل البالي على اقدامه ولماذا يعفو الدهر عن آثاره البالية ؟ – اسمعه واعجب للعمق في تفكيره وللجرأة في تعبيره :

رمال وانقاض صرح هوت ... اعاليه تبحث عن اسه
هنا ينفض الوهم اشباحه ... وينتحر الموت من يأسه !

وحيث يصف البائس :

يسحب الساق متعبا كعليل ... هجر الدار قبل يوم شفائه
ورؤوس الاشواك ترتد عنه ... وعليها ممزق من ردائه

ثم يصف اليتيم :

ساهم واهم كأن الاماني ... انفت ان تمر فوق لسانه
خلقة الله ، ابدعتها يداه ... واستخفت بها يدا انسانه

اما جمال المرأة – شغله الشاغل في خلواته وفي منظوماته – فهو بيت القصيدة في باب الوصف، قد لا يجاريه فيه الا الاخطل الصغير :

نامت وخاف ندي ... جفنيها حياة تحلم
وعلى ارتعاش شفاهها ... الحمراء بوح مبهم

***

ومن الخصر عطفة تركت في ... حلمة النهد نفرة العسلاء

– وما قولك في شعره الوطني ، هل من اثر له في شعره ؟

– خذ الجواب من فمه وكأنك تسمع فرحات والشاعر القروي حيث يقول :

اي شعب يعطي السلاح الى الباغي ... ويشكو من وخز ذاك السلاح
قد يعف الجزار لو لم تمرغ ... تحت اقدامه رقاب الاضاحي
كيف آتيك بالنجوم وسادا ... والليالي مقصها في جناحي

***

اي فلسطين يا ابتسامة عيسى ... لجراح الاذى على جثمانه
يا تني البراق في ليلة الاسراء ... والوحي ممسك بعنانه

لا تنامي خضيبة الحلم خوفا ... من غريب الحمى ومن اعوانه
ان للظلام جولة فدعيه ... رب حاور رداه في ثعبانه !

وتكاد تقرأ شعر المتنبي في قوله عن خالد بن الوليد :

هب للفتح فأدمى تحته ... حافر المهر جبين الكواكب
شرف الوثبة ان ترضى العلى ... غلب الواثب او لم يغلب

– وبالاجمال ؟

– بالاجمال ان الديوان حري بمطالعة كل اديب مولع بخمرة الشعر ويمكنك يا صديقي ان تحث القراء على اقتنائه وانت مرتاح الضمير .

كثيراً ما رددت على مسامع رفاقي ان من لايقرأ شعر الاخطل الصغير ونثر سعيد تقي الدين يخسر متعتين لذيذتين من متع الروح في الحياة . وعلي اليوم ان اضيف الي قولي ان شعر ابو ريشة هو متعة ثالثة من ذات الطعم وذات الطراز .

انتهى حديث الشاعر صيدح فشكرناه وايدناه في كل ما قاله عن زميله الكبير .

يونس ايرس ... جواد نادر

قضية العرب الفلسطينية

للاستاذ نديم بيطار – ٢٤٨ صفحة – مطابع صادر وريحاني – بيروت

مؤلف هذا الكتاب شاب في حوالي منتصف العقد الثالث من عمره ، تطغى على شعوره موجة من الحماسة العربية المتقدة ، وتستبد بتفكيره عاطفة حية من عواطف النقمة والتهجم المموهين باليأس ، وهو يرى بلاده العربية – باطلاق معنى العروبة الى اقصى الحدود – تتباطأ في نهوضها ، وتتلكأ في انبعاثها من بين انقاض المهانة والخمول ، وتتجاوز قانون الصبر والاناة في انطلاقها من براثن الاستعباد والاستبداد .

وكأني به أراد وحدة مشاكل العرب ، وحصرها في إطار واحد ، تتمازج فيه الالوان مختلفة متضاربة ، ولكنها ترجع في تكوينها وتكونها الى عناصر وجواهر تنطلق من مصدر واحد مماثل ، هو نفسية الامة العربية ، وما تنهض عليه هذه النفسية من ميول ورغبات ، وحيوية وامكانيات، اقول : اراد هذه الوحدة غير القابلة للتجزئة عندما سمى مؤلفه بـ « قضية العرب الفلسطينية » فاجاد ، واصاب هدف الملايين من شبان العروبة المتوثبين للمجد والحياة . ولقد اعطى الزمن ، بعد شهور قليلة من صدور كتابه ، الدليل القاطع على ان قضية فلسطين هي قضية العرب اجمعين ، ومأساتها هي مأساة البعث العربي المنشود ، بل هي المحك الذي اعده

القضاء لتجربة امكانية جاهير ترنو الى العلاء، وتتوق الى الآفاق الرحبة، ترسل منها اشعاعها الخاص في مهاب اشعاعات الانسانية الخالقة المبدعة .. وها هي ذي فلسطين اليوم، ميدان تتصارع فيه قوى الحق مع قوة الباطل، وها هي الامة العربية، بجيوشها، وبما تمتلك من عقيدة وايمان، تتهافت، ارواحاً واجساداً، على مذبح الاستشهاد في سبيل انقاذ فلسطين، وفي سبيل بناء حاضر ومستقبل يؤهلانها لان تقف في موكب الاحرار عزيزة الجانب موفورة الاباء.

ولست لابغي من هذه التوطئة ان ادل على اهمية «القضية الفلسطينية» فهي، ولله الحمد، تحتل ضمير وقلب وتفكير كل فرد من المجموعة العربية، في مشارق الارض ومغاربها .. واذا كان لكل نكبة شيء من الخير، فخيرنا من نكبة فلسطين هو في هذا التكتل الحربي – السياسي – المعنوي الذي راح يسود الجهد العربي، والامل العربي، والهمة العربية، والعزم العربي، في القضاء مرة واحدة واخيرة، على الموانع التي تعترض سبيلنا الى ما نصبو اليه من سؤدد ناجز واستقلال تام ... وهو في هذا الدم العربي النبيل يهرق على صعيد الكرامة والشرف، في دفع شر الصهيونية الاثيمة، والحد من محاولات الدول الاستعمارية الغشوم لوأد الوعي العربي المتفتح .. وهو في هذه الانشودة الرائعة التي تتألف الحانها من حفيف الارز، ونسمات الغوطة، وزغردات دجلة، وهدير النيل، وغمغمات الصحراء، ترسل من اوداء وهضاب وسهول فلسطين، ليتردد صداها في مسامع المعمور ... وهو اخيراً، في هذه الاخوة العربية، تنبثق متجلية، بالرغم عما بذله ويبذله الاعداء لملاشاتها، وبالرغم عما يسمى اليه الانكماشيون، الانعزاليون، من اهل التفرقة، واذناب الاستعمار ! ..

***

والآن لا بد لنا من كلمة في نقد هذا المؤلف، عبر الامانة والتجرد والاخلاص :

اول ما يسترعي انتباه القارىء فيه هذا الفيض من الحماسة اللاهبة، الجارفة، التي تود لو تعبىء كل ما تتناوله، وتحسه، وتتخيله في ابلاغ صرختها الى آذان القراء، وقلوبهم . فالكتاب قبل كل شيء، رسالة ضافية من شاب يؤمن بعروبته، ايماناً خالصاً عنيفاً، الى شباب امته، محط آمال البعث، وسياج تراث الجدود والآباء .. والواقع ان هذا الشاب قد وعى موضوع الكتاب، واستكمل دراسة القضية التي يعالجها، بكثير من الاندفاع، والغيرة، والايمان . ومما يستحق الاعجاب، في هذا المؤلف الذي هو باكورة اديبنا الشاب، امانته في نقل المصادر، وفي التحري الدقيق عن مظان البحث، ومراجع التاريخ – تاريخ القضية الفلسطينية، منذ نشأتها حتى قبيل تأزمها، وانقضاض جيوش الانقاذ العربية لخلاصها من مجرمي العصور، والحفاظ عليها عربية خالصة في حظيرة العروبة المقدسة، فجاء كتابه سجلاً تتجلى فيه مأساة فلسطين حية تختلج فيها آلام امة، وبأساء وطن . وان هذا العناء الذي لاقاه المؤلف في تدقيقه، وتحريه، حتى جاء كتابه مستوفياً، تام الفكرة والغرض، لجدير بالتقدير، والتشجيع .

ولكن هذا كله لا يمنعنا من ان نرسل هذه الكلمة الصريحة من على منبر «الاديب»، فيما نستطيع ان نسميه «عاهات» الكتاب :

اهم ما يستقبل المطالع في الكتاب ضخامته، فاذا ما بدأه، راح يتحسس شيئاً من الضعف في ابراز الفكرة باسلوب تغلب عليه الركاكة، وان تخلله في كثير من المواقف بعض ومضات فارهة، قوية، لا تكاد تلتمع حتى تنطفىء . وهناك ما هو اشد وطأة من ذلك، الا وهو التكرار الذي يقع فيه المؤلف اكثر من مرة في كل صفحة تقريباً، والاسترسال في الشروح والتعاليق، والاغراق في الاشارات والتحاليل، حتى يوشك المعنى ان يلتبس، والفكرة ان تضيع .. ولعل ذلك مرجعه الى ان المؤلف كان في كتابته متأثراً بنفسيته الفنية الملتاحة، فيرسل لها العنان دونما التفات الى الشكل الفني الذي يجب عليه اظهار مراميه فيه .. او لعل حداثة عهده في التأليف، وضآلة تمرسه بالكتابة، رغم وفرة تحصيله، ورطتاه في «عاهة» التطويل الذي جره الى الحشو والتكرار .. ثم هناك عامل آخر يضطرنا الى الاعتقاد بان المؤلف الاديب لم يكن يرجو من تأليفه الا غاية واحدة، او هدفاً اوحد، هو التدليل على عظم النكبة، وهول الفادحة، فيما اذا تمكن الصهاينة من تشييد وطنهم القومي في فلسطين، والتنبه الى الاخطار التي تهدد كل قطر عربي، وكل حلم عربي في السيادة والحياة، فيما اذا ظل العرب ينظرون الى «مشكلة فلسطين» نظرهم الى قضيـة منفصلة عن قضاياهم، مستقلة عن مشاكلهم .

وفي الكتاب اغلاط وهنات لغوية، عديدة، نرجعها الى ما سبق وقلناه عن حداثة عهده بالكتابة والتأليف . ويا حبذا لو اجتهد في جعل مؤلفه القيم خلواً من هذه الاخطاء .

وجميع هذه «العاهات» ايضاً، لا تقلل، في نظرنا، من اهمية الكتاب، ولا سيما اذ نعلم ان الاستاذ نديم بيطار، شاب، طري العود، فتي التفكير، ينزل الى ميدان الادب بعزمة وايمان،

والى حومة النضال بجرأة واخلاص. وانّنا لنرجو صادقين ان يطالع الشباب العربي في كل قطر هذا الكتاب، ليجد فيه نداء يتجسد فيه الحق، ويتألق الرجاء ... نداء مصدره القلب والضمير والوجدان. ونأمل ان تجيء تآليفه التي اشار الى اهتمامه باعدادها ونشرها مستوفاة جميع عناصر «الفن الشكلي». الى جانب الفكرة والمعنى، والروح! .. وكلمة اخيرة لا بد منها، هي ان هذا الشاب الناشيء عرف كيف يسمع صوت الشباب الحي الوثاب في اروع مأساة تلم بدنيا العرب عبر التاريخ وخلال العصور، فاستحق شكر النشء الحديث .

باماكو — السودان الافرنسي — فهد ابراهيم

مباحث في الاقتصاد العراقي

للاستاذ مير بصري — ٣٣٦ صفحة — شركة التجارة والطباعة — بغداد

اخرجت المطبعة العراقية في هذا الاسبوع كتاباً فريداً لشخصية فريدة. هذا الكتاب هو «مباحث في الاقتصاد العراقي» الذي مزج بين العلم والادب وعرض الحقائق الاقتصادية في ثوب براق من الاسلوب الرفيع واللغة البليغة السلسلة. ولا غرو فالمؤلف من شباب العراق المبرزين عرف بشخصية لامعة متعددة الجوانب وحاز مكانة مرموقة في المحافل الاقتصادية والادبية .

وولد مير بصري في بغداد سنة ١٩١٢ ودرس الاقتصاد واللغة العربية وعلومها والآداب الشرقية والغربية دراسة مكينة واتقن اللغتين الفرنسية والانكليزية . شغل وظائف مختلفة في الحكومة العراقية فكان سكرتيراً لوزارة الخارجية ووكيلا لمدير التشريفات ومديراً لغرفة تجارة بغداد ومديراً للدعاية في جمعية التمور العامة وانتدب لتمثيل العراق في معرض باريس العالمي ومؤتمر التجارة الدولي المنعقد في نيويورك، ورئس تحرير مجلة غرفة تجارة بغداد ثماني سنوات فجعل منها منبراً حراً لاقلام اكابر الكتاب والباحثين ويراع الشباب المثقف معاً . وبلغت مكانته في الاوساط التجارية ان اختير لعضوية لجان رسمية مختلفة لمعالجة شؤون البلاد الاقتصادية والمالية وان اصبح يستفتى في كل صغيرة وكبيرة من امور المال والتجارة والاقتصاد . واشترك في الحياة العامة فانتخب عضواً في المجلس العام للواء بغداد ومجلس اللواء الاداري فكان مقرراً للجنة المالية وتقدم باقتراحات قيمة في سبيل ترقية اللواء وانجاز المشاريع المفيدة .

ومير بصري الى جانب ذلك اديب المعي وشاعر رقيق عرف باسلوبه الانيق الذي انفرد به حتى صح فيه قول بوفون : «ان الاسلوب هو الرجل» . قرض الشعر فنظم الملاحم كملحمة «نهاية الابطال» التي استمد موضوعها من اسكنديناڤية الوثنية وقد نشرتها مجلة «الكاتب المصري» فافردت لها بضع عشرة صفحة في عدد واحد . وقد نزع الاستاذ في بعض شعره نزعة صوفية ورمزية وهو اول من ادخل الى اللغة العربية «الاراثين» او «السباعيات» على طرز السونيت Sonnets الافرنجية. اما نثره فامتاز بديباجة مشرقة وايقاع يهز القارىء ويهدهده، وقد كتب في شتى المواضيع القصة والمقالة والتاريخ والتراجم والنقد الادبي والادب المقارن ونقل بعض روائع الادب الغربي شعراً ونثراً . وقد اذاع خلال السنوات الاخيرة مئات الاحاديث من محطة بغداد اللاسلكية وسواها من دور الاذاعة العربية فتناولت مواضيعه الشعر والقصص والحياة الادبية والاجتماعية والاقتصادية ..

ان كتاب «مباحث الاقتصاد العراقي» الذي صدر الآن قد جمع في صفحاته الـ ٣٣٦ طرفاً من كل هذه النواحي المتعددة المتباينة المتآلفة فجاء تحفة لا نظير لها . واذا كان اسلوب المؤلف ادبياً يغري القارىء ويشوقه فانه لم يهمل الناحية العلمية على حساب الادب بل وفى المواضيع حقها وعالج الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية بروح العالم المدقق، الغيور على مصلحة وطنه وبلاده وقد قدم الكتاب معالي الاستاذ يوسف غنيمة عضو مجلس الاعيان ووزير المالية والتموين سابقاً فلخص الكتاب بكلمة قصيرة اذ قال : «يكفي المرء ان يقرأ اسم المؤلف ليقدر التأليف حق قدره» .

قسم الكتاب الى ستة ابواب : (١) شؤون الاقتصاد (٢) نظرات اقتصادية (٣) شؤون التجارة (٤) شؤون الزراعة والصناعة (٥) شؤون النقد والمال (٦) الاقتصاد والحرب . واختتم بما لا يقل عن ٤٠ صفحة من المعاجم والفهارس العلمية المفصلة اهمها معجم للاعلام تراجم الاشخاص الذين جاء ذكرهم في المتون ومعجم للاصطلاحات والنظريات الاقتصادية ضم مئات الالفاظ والتعابير مع ما يقابلها باللغتين الانكليزية والفرنسية . ولا شك في ان لهذا المعجم قيمة كبيرة في تقرير الاصطلاحات الاقتصادية وتثبيتها وتعميمها بين قراء اللغة العربية .

وامتاز الكتاب بعد ذلك بنزعته الاصلاحية فهو يدعو الى النهضة الاقتصادية الشاملة واستثمار المرافق المهملة وزيادة الثروة العامة ورفع مستوى المعيشة لطبقات الشعب واستخدام السياسة

الاقتصادية اداة للنهضة الاجتماعية والرفاهية العامة كما يدعو الى مكافحة الفقر والجهل والمرض وتحقيق الاستقلال الاقتصادي الذي يعتبر دعامة الاستقلال السياسي وتوثيق التعاون الاقتصادي بين الاقطار العربية الشقيقة . وهذه الدعوة مبثوثة بين دفتي الكتاب فلا تكاد تقلب صفحة حتى تجد النزعة الاصلاحية ظاهرة في اجلى مظاهرها .

ان على الشباب العراقي خاصة والعربي عامة ان يتدبر دعوة الاستاذ مير بصرى وان يتمثلها لكي تحقق الاقطار العربية الناهضة ما تصبو اليه من رقي شامل وسعادة .

بغداد نجيب عارف

لماذا أنا قومي ؟

للاستاذ ابراهيم شوكة – ٣٧ صفحة – منشورات مكتبة الشباب القومي – بغداد

الاستاذ ابراهيم شوكة مؤلف كتيب لماذا انا قومي ، اديب المعي يمتاز ببعد في النظر ، وكاتب لوذعي يمتاز بدقة التعبير وجمال الاسلوب . عندما تسلمت الكتيب الثمين من مؤلفه انتابني شعور مزيج من اللهفة والشعور الى مؤلفات الاستاذ الاديب التي يجب ان لا تخلو مكتبة منها . وساءلت نفسي : أفي هذا الكتيب القليل الصفحات يضم الاستاذ مغزى القومية ، ولماذا هو قومي ؟ ؟

فالقومية ، كما اعتقد ، لا يمكن حصرها في مؤلف صغير ، بل في مؤلف كبير الحجم واسع المبنى . ولكن بعد ان تسنى لي سبر غور المؤلف ، والتشوف الى حقيقة فحواها ، آمنت في قرارة نفسي بأن مؤلف : لماذا انا قومي؟ هو القومية ذاتها تستكن بين جوانحه سوراً منها بينات اظهرها للملأ او بالاحرى لكل شاب يدين بالقومية الحقة ، واخرجها من عالم التصور الى عالم التصوير بشكل يستسيغه الجهلاء ويرضى عنه العلماء ، كانت رغبة ملحة تلك التي حدث بي الى ان اتصفح المؤلف الصغير فلم اشأ ان اقرأه عرضاً بل اشبعته تمحيصاً وتدقيقاً فراعني ما حوى بين دفتيه من معان للقومية وما هو مغزاها وما هي اسسها واركانها . ولا يعجبن القارىء الكريم اذا قلت له ان هذا الكتيب الفريد في بابه ، الصغير في مبناه والكبير في معناه قد حلل كل ما يتعلق بالقومية العربية ولماذا تعتز العروبة بقوميتها ، وما هي اسس القومية الحقة ؟

ويقيني ان المؤلف قد اوفى بالغرض المطلوب من تبيان للقومية العربية وتحليل لمزايا الاسس الصحيحة الصالحة التي تقوم عليها القومية .

ولعل اهداء الكتاب خير دليل على فحواها حيث يقول الاستاذ المؤلف : الى ام الجندي التي تعجن تربة بلادها بدم ابنها ودموعها لتبني للاجيال القادمة صرح عز ومنعة . أهدي هذا .

اني ليسرني في هذه العجالة ان ادعو كل من يعتز بالقومية العربية ، واناديي كل من يدين بالعروبة الصحيحة ، ادعوهم وأناديهم لاقتناء هذا الكتيب تشجيعاً للكفاح في سبيل القومية العربية ، واعلاء كلمة الحق . واحباط الباطل .

بغداد صبحي عبد العزيز العاني

الكشفية للفتيان

تعريب رشيد شقير – ٢٥٦ صفحة – مطبعة الكشاف – بيروت

منذ ان ابتدع اللورد بادن باول نظام الكشفية والحكومات لا تألوا جهداً في سبيل تشجيع هذه الحركة في بلادها والعمل على ازدهارها نظراً لما تغرسه في نفوس الناشئة من روح رياضية سامية وعزة وتفان في سبيل الغير واعتياد على الحياة الخشنة البعيدة كل البعد عن حياة الدعة والرفاهية .

وقد احسن المترجم بنقل هذا الكتاب الى اللغة العربية – فانه مما يؤسف له ان الحركة الكشفية في بلادنا لم تثمر ثمرتها المرجوة ، بل كانت على عكس الغاية التي انشئت من اجلها اداة للمنازعات واثارة الضغائن – لعل القائمين على امر الكشفية عندنا يتدبرونه حق التدبر فيفيدوا البلاد والناشئة بهذه الحركة النبيلة .

وقد وفق المترجم في ترجمته فجاء عرضه سهلاً واضحاً الا انه لم يخل من بعض الاخطاء المطبعية واللغوية كان بالامكان تلافيها بقليل من العناية .

ذوو الفكاهة في التاريخ

لصادق الملائكة – ٢٦٥ صفحة – مطبعة الجامعة – بغداد

هذا كتاب طريف في موضوعه اذ يبحث كما يدل عليه عنوانه في رجال الفكاهة مع سرد لبعض نوادرهم وفكاهاتهم كابن هرمة والاشجعي وبشار بن برد وابو دلامة وابو السائب المخزومي وابن سودون وابو العيناء وغيرهم كثير .

وقد عني المؤلف بشرح الكلمات الغامضة او العويصة في اسفل كل صفحة تسهيلاً للقارىء في تفهم الملحة .

حول اليونسكو

بقلم ساطع الحصري

☆

يونسكو كلمة جديدة، استحدثت لتسمية مؤسسة جديدة إنها جديدة بكل معنى الجدة: ليس لها أي أصل وأي جذر، في أية لغة من لغات العالم. فقد تكونت على طريقة خاصة من النحت والاختزال. على أساس وصل الحروف الاولى من الكلمات الست التي تدل على اسم المؤسسة الاصلي حسب ترتيبها في اللغة الانكليزية: «منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة»
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organisation

والمؤسسة التي سميت بهذا الاسم ايضاً جديدة، لانها لم تتم بعد السنة الثالثة من عمرها. ولكنها لم تكن جديدة بكل معنى الكلمة. لانها قامت — في حقيقة الامر — مقام مؤسسة قديمة، كانت انشئت عقب الحرب العالمية الاولى، وعاشت الى حين اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية.

ونستطيع ان نقول بكل تأكيد: إن مؤسسة اليونسكو، ليست الا شكلاً جديداً للمؤسسة التي كانت تعرف قبلاً باسم «منظمة التعاون الفكري بين الامم». Organisation Internationale de Coopération Intellectuelle

ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا: انها وريثة تلك المؤسسة القديمة وخليفتها الطبيعية. فيجدر بنا ان نتساءل: بماذا تمتاز المؤسسة الجديدة عن القديمة؟ ما هي أوجه الشبه والخلاف بينهما؟ وهل يدل «تحول» المؤسسة من شكلها القديم الى شكلها الجديد، على «تطور ارتقائي»، أم يدل على «تطور ارتجاعي»؟

للاجابة على هذه الاسئلة اجابة صحيحة، يجب علينا — اولاً — ان نلقي نظرة عجلى على تاريخ المؤسسة القديمة، وان نستعرض استعراضاً سريعاً اهم الاعمال التي قامت بها، بين الحربين العالميتين الاخيرتين.

عندما تأسست عصبة الامم — سنة ١٩٢٠ — بموجب معاهدات الصلح التي عقدت بعد الحرب العالمية الاولى، رأت من الضروري ان تدعم اعمالها السلمية بالوسائل الفكرية والمعنوية، فانشأت — سنة ١٩٢١ — لجنة خاصة لهذا الغرض، اسمتها باسم «لجنة التعاون الفكري بين الامم». Commission internationale de coopération intellectuelle

واللجنة الاممية المذكورة، اخذت تنشيء — منذ سنة ١٩٢٢ — «لجاناً قومية» في مختلف البلاد المنتسبة الى عصبة الامم. كما انها انشأت عدة «لجان اختصاصية» مؤلفة من «الخبراء» في مختلف الشؤون الفكرية. وربما كان اهم هذه اللجان الاختصاصية «لجنة الخبراء» التي تألفت سنة ١٩٢٣، «لتعليم الناشئة اهداف عصبة الامم» Comité d'experts pour l'enseignement à [la jeunesse des buts de la Société des Nations

وعندما توسعت وتقدمت اعمال هذه اللجان المختلفة، رؤي من الضروري تأسيس «مكتب دائم» يقوم بتنسيق هذه الاعمال، ويتولى تحضير المشاريع المتعلقة بشؤون اللجنة الاصلية، مع تنفيذ المقررات الصادرة منها، فأنشيء — سنة ١٩٢٥ — «معهد التعاون الفكري بين الامم» Institut internationale de Coopération Intellectuelle

والمعهد المذكور، بدوره، أنشأ عدة شعب ودوائر، كان من جملتها: شعبة العلاقات الجامعية، شعبة العلاقات العلمية، شعبة العلاقات الادبية، شعبة العلاقات الفنية، ومركز الاستعلامات المدرسية، ومكتب المتاحف الاممي...

وقد عرفت مجموعة المؤسسات التي أنشئت بهذه الصورة بصورة تدريجية، باسم «منظمة التعاون الفكري بين الامم» Organisation Internationale de Coopération Intellectuelle

واما مهمة هذه المنظمة وهذه المؤسسات الأممية. فقد لخصها رئيسها بما يلي:

اولاً: تهيئة الوسائل التي تؤول الى تقدم العلوم وصيانة القيم الفكرية؟

ثانياً: تنمية روح التفاهم المتقابل، وتقوية النية الحسنة بين الامم.

وقد اشتغلت مؤسسات «التعاون الفكري» الآنفة الذكر لتحقيق هاتين الغايتين، حتى الحرب العالمية الثانية، بوسائل متنوعة:

عقدت سلسلة طويلة من المؤتمرات، دعت كبار رجال الفكر والادب الى الاجتماع من وقت الى آخر، في مختلف المدن، «المناقشة والمطارحة» في اهم المسائل الفكرية، وقامت بعدة أبحاث وتحقيقات واسعة النطاق، حول بعض الامور التي تهم جميع الامم على حد سواء، ووضعت مشاريع عديدة لتأمين التعاون الفكري بواسطة المعاهدات. ونشرت كثيراً من الكتب والمجلات، لتدوين نتائج هذه الابحاث والمناقشات، وأذاعتها على الناس.

وأما أهم هذه النشرات فكانت: مجلة شهرية تعنى بشؤون التربية والتعليم، واخرى تبحث في شئون المتاحف بوجه عام.

سلسلة مطارحات: في مستقبل الثقافة — وفي مستقبل الفكر الاوربي — وفي تكوين الرجل العصري — وفي علاقة الفن بالحقيقة وبالدولة — وفي الانسانيات الجديدة والانسانيات القديمة.

سلسلة ابحاث وتحقيقات: في حقوق الملكية الادبية — وانظمة ايداع المطبوعات — ومهمة المكتبات الشعبية في الحياة الفكرية والاجتماعية — مهمة السينما، وخدمتها للتربية والتعليم — مهمة الاذاعة، وتأثيرها في الحياة العامة — مهمة الصحافة — الكتب المدرسية، من وجهة تأثيرها في تفاهم الشعوب.

وقد اهتمت مؤسسة «التعاون الفكري» بجميع القضايا المتعلقة بالمعاهدات الثقافية اهتماماً كبيراً، فهيأت مشروع «التصريح الدولي» المتعلق بتنقية الكتب المدرسية من الابحاث والعبارات التي تثير الضغائن وتحول دون استقرار السلم وتفاهم الشعوب.

كما انها جمعت ونشرت جميع «المعاهدات والاتفاقات الثقافية المعقودة بين الدول المختلفة حتى سنة ١٩٣٨. وفي الاخير، وضعت مشروع الاتفاقية التي تضمن صيانة المتاحف والمباني الاثرية من ويلات الحروب والغارات الجوية.

***

ولكن الرجال الذين كانوا اخذوا على عواتقهم انجاز هذه الاعمال الهامة، لاحظوا: ان بقاء هذه المؤسسة مرتبطة بعصبة الامم، لا يخلو من محاذير كبيرة، لان هذا الارتباط يجعلها تابعة الى «هيئة سياسية»، ويعرضها الى تأثير «التقلبات السياسية»، فيحول دون تنظيم وتسيير امورها، وفق ما تقتضيه مبادىء «التعاون الفكري الاممي» السامية، بمعانيها الحقيقية واصولها العلمية.

فأخذ هؤلاء يدعون الى فصل مؤسسة التعاون الفكري عن عصبة الامم، وجعلها مستقلة عنها، وغير متأثرة بالسياسة التي تتبعها. فقد اثمرت هذه المساعي الثمرات المطلوبة منها، واقر المؤتمر الذي انعقد في باريس خلال الشهر الاخير من سنة ١٩٣٨ مشروع «الاتفاق الدولي» الذي وضع لهذا الغرض.

وقد صرحت المادة الاولى من هذا الاتفاق الدولي «ان الدول المتعاقدة تقر ان عمل التعاون الفكري مستقل عن السياسة».

وعينت مواده التالية، كيفية مساهمة الدول في هذا التعاون الفكري.

وصرحت مواده الاخيرة: ان الاتفاق المذكور سيترك معروضاً الى توقيع الدول الممثلة في المؤتمر حتى ٣٠ نيسان — ابريل — سنة ١٩٣٩، والى انضمام سائر الدول اعتباراً من اول ايار — مايو — ١٩٣٩. وانه سيصبح نافذ المفعول حالما يبلغ عدد الدول الموقعة عليه او المنضمة اليه الثمانية.

ولا حاجة الى البيان: ان كل ذلك جاء متأخراً. لان الازمات السياسية الحادة التي ادت الى نشوب الحرب العالميه الثانية، كانت قد بدأت فعلاً قبل الموعد المذكور. وهذه الحرب عطلت — بطبيعة الحال — اعمال «التعاون الفكري» و«عصبة الامم» في وقت واحد.

وقد تأثرت مؤسسة التعاون الفكري من الحرب العالمية تأثراً شديداً جداً، لان مركزها كان في باريس. ومن المعلوم ان باريس كانت اشد المدن تعرضاً الى التقلبات السياسية والعسكرية طوال سني الحرب المذكورة.

وأما منظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة — وبتعبير أقصر: مؤسسة اليونسكو — فقد تكونت بعد الحرب العالمية الثانية، بناء على قرار هيئة الامم المتحدة، بموجب اتفاقية دولية وضعت في اواخر سنة ١٩٤٥ (١٦ نوفمبر — تشرين الثاني).

والغرض من انشاء هذه المنظمة مذكور بصراحة تامة، اولاً في ديباجة الاتفاقية، وثانياً في المادة الاولى منها.

وقد جاء في مستهل الديباجة ما يلي: «من حيث ان الحروب تبدأ في عقول الناس، وجب ان توضع اسس الدفاع عن السلام في هذه العقول».

وجاء في خاتمة الديباجة: ان الدول المتعاقدة تقصد بتأسيس منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة «تقوية اسباب السلم العالمي، وتعزيز الرفاهية العامة بين جميع بني الانسان، عن طريق التعاون الثقافي والعلمي والتربوي بين شعوب الدنيا قاطبة، وهو الغرض الاسمى الذي من اجله أنشئت هيئة الامم المتحدة، والذي نادى به ميثاق هذه الهيئة».

كما جاء في مستهل المادة الاولى من الاتفاقية : « ان الغرض من تأسيس المنظمة هو خدمة السلام والامن بتقوية تعاون الشعوب عن طريق التربية والعلوم والثقافة » .

يلاحظ من كل ذلك ، ان هـذه المنظمة نشأت في ظروف مشابهة لظروف نشأة « لجنة التعاون الفكري » كل المشابهة ، ولاغراض مماثلة لاغراض تلك اللجنة كل المماثلة ولهذا السبب فقد اعتبرت نفسها بمثابة « الوريثة الشرعية » لها ، فطالبت بميراثها — من كتب واوراق واضبارات واموال — ومع هذا اعلنت انهـا مختلفة عنها ، واوسع منهاجاً منها .

ولا شك في ان هذه المنظمة الجديدة ، تختلف عن المؤسسة القديمة ، من وجوه عديدة : انها نشأت اشد طموحاً واوسع ثروة منها ، ووضعت لنفسها خطة اكثر عملية واقل مثالية من خطط سالفتها ، لانها بدأت بالعمل لمساعدة البلاد المخربة مساعدة مادية في ساحات العلم والتعلم . فاستطاعت لذلك ان تحصل على ميزانية اضخم بكثير من الميزانية التي كانت توصلت اليها مؤسسة التعاون الفكري القديمة ، بين الحربين العالميتين . .

غير ان هذه المنظمة الجديدة ، لم تستفد من تجربة المؤسسة السابقة وخبرتها في الشئون السياسية ، فلم تحاول الاستقلال عن الهيئات السياسية ، كما فعلت تلك المؤسسة في اواخر عهدها ، بعد التجارب الطويلة التي مرت عليها .

فنشأت منظمة اليونسكو مرتبطـة بهيئة الامم المتحدة ، ومقيدة بقيود سياسية عديدة .

في الواقع انها تدّعي « البعد عن السياسة » . غير ان نظامها الاساسي لا يؤيد مدّعاها هذا : لان المادة الثانية من هذا النظام تصرح بأن « عضوية هيئة الامم المتحدة تستتبع ضمناً حق العضوية في منظمة التربية والعلوم والثقافة » انها لا تمنع انضام « الدول غير المشتركة في هيئة الامم » الى عضوية هذه المنظمة ، غير انها تشترط لذلك « مراعـاة احكام الاتفاق الذي يتم بين المنظمة وبين هيئة الامم المتحدة في هذا الشأن » . والاتفاق الذي تمّ فعلًا بين الهيئتين يقضي باحالة امثال هذه القضايا الى « المجلس الاقتصادي والاجتماعي » من هيئة الامم المتحدة ، ويعلق القبول في عضوية اليونسكو على موافقة المجلس المذكور .

في الواقع ان مديري اليونسكو يصرحون بأن تقرير « مبدأ الرجوع في هذه القضايا الى المجلس الاقتصادي والاجتماعي عوضاً عن الهيئة العامة للامم المتحدة » كان من جملة التدابير الـتي اتخذت لتخليص اليونسكو من التأثيرات السياسية « غير ان العلاقـات القوية التي تربط الشئون الاقتصادية بالاغراض السيـاسية ، تجعل هذا التدبير واهياً جداً .

زد على ذلك ، فان الفقرة الاخيرة من المادة المذكورة تنص على ما يلي : اذا قررت هيئة الامم المتحدة اسقاط احدى الدول من عضويتها « تفقد الدولة المذكورة عضويتها في اليونسكو ايضاً على الفور وبدون اجراءات » .

ان كل ذلك يجعل مؤسسة اليونسكو تابعة لهيئة سيـاسية وخاضعة لرغبات تلك الهيئة ومقرراتها .

ولا اراني في حاجة الى البرهنة على ان « هذه المنظمة العلمية والثقافية » التي لا تستطيع — بحكم نظامها الاساسي — ان تضم اليها بعض الدول الا بعد اخذ موافقة هيئة اخرى تابعة الى منظمة ذات اغراض سياسية صريحة . . والتي تضطر الى فصل البعض من اعضائها لاسباب لا تمت بصلة ما الى الشئون العلمية والثقافية ، بل لمجرد صدور قرار من هيئة سياسية بحتة لاسباب سياسية صرفة . ان هذه المنظمة لا تستطيع ان تدعي لنفسها صفة « العلمية والاممية » الحقيقية . . انها تصطبغ بصبغة سياسية ، لا يمكنها ان تتجرد منها مهما حاولت سترها تحت تعبيرات خلابة ، مثل « الحيـاد الدولي » والنزوع العالمي ، والعمل الانساني » .

ولذلك انا لا اتردد في القول : بأن النظام الذي انشأ مؤسسة اليونسكو الجديدة ، يدل عـلى « رجوع الى الوراء » بالنسبة الى المرحلة التي كانت وصلت اليها مؤسسة التعاون الفكري القديمة ، قبيل الحرب العالمية الاخيرة .

هذا ، واذا تركنا دلالة النظام الاساسي جانباً ، واستنطقنا المشاريع التي وضعتها — والاتجاهات التي اظهرتهـا — منظمة اليونسكو منذ تأسيسها ، توصلنا الى نتائج مماثلة للنتيجة الآنفة الذكر من وجوه عديدة .

اذ الامثلة التالية تكفي لتبيين ذلك بكل وضوح :

● تصرح التقارير الصادرة من بعض اللجان في اليونسكو « ان هذه المؤسسة جزء متمم لهيئة الامم المتحدة ، وان نجاحها يتوقف على نجاح تلك الهيئة » .

في حين ان الامر كان يجب ان يكون على عكس ذلك تماماً : كان يجب على اليونسكو ان تعمل للمستقبل، فلا تربط مقدراتها بمقدرات هيئة سياسية مثل هيئة الامم المتحدة الحـالية . لان هذه الهيئة السياسية محكومة — بطبيعتها — لان تكون مسرحاً ، تتنافس

وتتخاصم وتتقــاتل عليه الاطماع الدولية بشتى الصور ، وتتوالى عليه مشاهد المخادعات السياسية بأبشع الاشكال ، وتختنق خلالها اصوات الحق والحقيقة بأفظع الاساليب .

فكان على الهيئة التي تأخذ على عاتقها مهمة « خدمة السلام عن طريق التربية والعلم والثقــافة » ، ان تقدر هذه الحقيقة حق قدرها ، وان تتباعد عن هذا المسرح السياسي كل الابتعاد .

● تسعى هذه المؤسسة العالمية الى تأسيس مراكز اقليمية عديدة قائمة على الاعتبارات الجغرافية ، وذلك علاوة على «الشعب القومية» التي يجب ان تتأسس في كل دولة من الدول المشتركة في المؤسسة .

واللجنة التحضيرية المكلفة بوضع الخطط اللازمة لتكوين هذه المراكز الاقليمية ، تقدمت بوصايا واقتراحات عديدة ، كان من جملتها : ان يجتمع « مكتب اليونسكو الاقليمي » في بناية واحدة ، او في مجموعة بنايات متقاربة ، مع سائر المكاتب والمراكز والهيئات التي تنبثق من هيئة الامم المتحدة في ذلك الاقليم ، وذلك لضمان اتصال مكتب اليونسكو بتلك المكاتب والهيئات اتصالاً مستمراً . وقد ذكرت اللجنة بين الفوائد المتوخاة من هذا الاتصال « انه يساعد على توليد وتكوين وضع مشترك تجاه المسائل الثقافية والاقتصادية والسياسية » .

يظهر من ذلك بكل وضوح : ان محافل اليونسكو تحاول مزج وخلط هذه المسائل بعضها ببعض ، ولا تقدر ان « التعاون الفكري والثقافي الحقيقي » بين الامم — خدمة للاغراض السامية المدونة في نظام اليونسكو — مما لا يمكن ان يتحقق الا بفصل الامور الثقافية عن الاغراض السياسية ، فصلاً تاماً .

● يوجد بين المشاريع التي اولتها مؤسسة اليونسكو اهتماماً كبيراً مشروع لا يخلو من الغرابة بالنسبة الى اغراضها الاساسية : وهو «تأليف وطبع مجموعة من المختارات الادبية» عن ضروب الآلام التي قاستها بعض البلاد خلال احتلال دول المحور لها ، وعن جهود المقاومة التي بذلت ونظمت في تلك البلاد للتخلص من ذلك الاحتلال » .

تجاه الاهتمام البالغ الذي تظهره « منظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة » لهــذا المشروع ، لا يسعني الا ان أسأل بكل صراحة وبكل اخلاص : هل ان تأليف ونشر مثل هذه المجموعة الادبية ، مما يدخل في نطاق الامور التي يجب ان تساهم فيها وتتعاون عليها جميع الدول والامم المنتسبة الى هذه المنظمة العالمية ؟ .

ثم ، افلا يوجد شيء من التنــاقض بين رعاية هذا المشروع وبين « خدمة السلام عن طريق التربية والعلم والثقافة » كما يتطلبها نظام اليونسكو بعبارات صريحة ؟

أفلا يتنافى ذلك مع مــا توصي به هذه المنظمة — في عدة مناسبات — من « السعي وراء ازالة الخصومــات من النفوس ، ووضع اسس السلام في العقول » ؟

واما اذا قيل لي — رداً على هذه الاسئلة — « ربمــا ذهب رجال اليونسكو الى ان تحقيق هذا المشروع يساعد عــلى توطيد السلام ، لانه يستهدف — في نهاية الامر — التحذير من الاعتداء والتشجيع على مقاومة الاعتداء » . فأنا اقول — في هذه الحالة — اذا كانوا يعتقدون ذلك حقاً ، لمــاذا يحصرون المشروع داخل نطاق مظالم دول المحور وحدها ، ومناقب ضحايا المحور وحدهم ؟ أفلا يعلمون ان الشعوب المظلومة والمضطهدة ليست عبارة عن تلك التي نكبت باعتداء المحور خلال الحرب العالمية الاخيرة ؟ او يجهلون ان هناك شعوباً اخرى قاست — ولا تزال تقاسي — شتى الآلام وانواع الشقاء . من جراء اطماع بعض الدول المؤسسة لهيئة الامم المتحدة نفسها ، والداخلة في اليونسكو نفسه ؟ لماذا لا تسلك « منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة » مسلكاً واحداً تجاه هذه وتلك ؟

ان كل هذه الملاحظات تدل دلالة قاطعة على ان هذا المشروع — الذي حظي باهتمام اليونسكو بشكله المعلوم — لم يكن وليد « تفكير علمي ونزعة عالمية » ، بل هو محصول مطالبات جماعة بعيدة عن ذلك التفكير وعن تلك النزعة ، ومدفوعة بدوافع سياسية واضحة . .

انا لا ارى لزوماً لاطالة البحث وتكثير الامثلة في هذا المضمار .

واختم كلامي بدعوة مديري اليونسكو الى التدبر في امثال هذه الامور ، والتبصر في عواقب هذه الاتجــاهات . . والسعي وراء تبعيد اعمال التربية والعلم والثقافة عن نطــاق تأثير الاطماع والمخادعات السياسية . والا . . فلا اتردد في القول : بان منزلة اليونسكو لن تعلو كثيراً منزلة الكثير من الجماعات ، شبه العلمية ، التي ترعرعت تحت رعاية وزارات المستعمرات او وزارات الخارجية .

« الثقافة » ساطع الحصري

« البركة » وحدها لا تكفي

تطغى على شرقنا العربي ، حكومات وشعوباً وافراداً ، نزعة من التوكل والاتكال ، هي علة مــا نشاهده من فساد وفوضى وتخاذل وانهيار . يتوكلون على كل شخص ما عدا الله ، ويتجاهلون في كل عمل حتى في تقرير مصير البلاد . وتسير الامور اليوم في جميع مرافق هذا الشرق — في عصر القنبلة الذرية — عــلى نهج من

« الدروشة » او سمه اذا شئت « على البركة » كما تقول العامة .

كان آباؤنا واجدادنا يزاولون اعمالهم التجارية « على البركة » فلا يحصون اموالهم حتى لا تفقد البركة ، ولا يعلم الواحد منهم مركزه المالي الحقيقي فالامور تسير على البركة ، والعد والاحصاء في نظرهم يذهبان بهذه البركة .

وسادت هذه العقلية « عقلية البركة » احد الاجتماعات العسكرية حين سئل مندوب احدى الدول العربية عن عدد مصفحاته فاجاب .

« عندنا من خير الله عدد واف ، ستكونون مسرورين . . عندنا البركة » .

انا لا اعرف تاجراً سارت اعماله على البركة وحدها الا واعلن افلاسه في النهاية . انا لا اعرف قائداً نظم معركة حربية على البركة وحدها الا وخسر المعركة في النهاية .

ما اتعس الخطيب الذي يقف في الجماهير ويخطبهم على البركة بما يفتح الله عليه . وما اشقى جمهور المستمعين لهذا الخطيب . . وما اتعس الكاتب يمسك القلم ويكتب على البركة . . وما اشقى قراءه .

بل ما رأيكم في موازنة الدولة اذا وضعت ارقامها على البركة .

عالمنا اليوم عالم درس عميق وتخصص واف ، واستعداد منظم واحصاءات صحيحة . . عالمنا اليوم مادي لا يعيش فيه الانسان بالروحانيات . فقد مضى الزمن الذي كانت فيه الموائد تهبط من السماء . . فالسماء لا تطعم خبزاً ولا عسلاً كما قال عمر بن الخطاب .

ان الذين يعالجون سياستنا العامة على « البركة » لن يبارك الله اعمالهم ولن يفتح الله عليهم بالخير .

ان معالجة شؤوننا العامة على « البركة » هو نوع من الشعوذة والتدجيل . ان معالجة قضايانا السياسية « على البركة » اشبه شيء بحبة البركة الصغيرة السوداء نقاوم بها القنبلة الذرية ! .

« بيروت المساء » عبدالله المشنوق

فتياتنا والتخصص العالمي ! . . .

كثيراً ما تسألني فتاة من بناتنا الطامحات : ماذا تنصحني ان اتخصص ؟ فيكون جوابي دائماً ، ودون تردد ، « تخصصي بالامومة ! » .

ولبعض الفتيات حججهن ضد هذا القول ! فهن يقلن مثلاً بأن بعضهن قد لا يصبحن امهات ؟ وهن يقلن ايضاً بان الامومة ممكنة دون تخصص ! . وبينهن من يرين بأن طموحهن لا يجوز ان يقف عند هذا « التخصص » بالامومة ! . .

فالى اللواتي يزعمن بأن بعض الفتيات قد لا يصبحن امهات ، اقول : ان الاتجاه الطبيعي للفتاة هو ان تصبح اماً ! فاذا شذت القاعدة بنسبة مئوية ضئيلة فالشذوذ لا يبنى عليه . فضلاً عن ان انصراف الفتيات الى تدبير مستقبلهن ، على اساس عدم تأكدهن من انهن مدعوات الى الامومة ، يصبح بحد ذاته سبباً في زيادة تلك الامكانية ، امكانية ابتعادهن عن الامومة .

وان بلداً كلبنان ، لا يعاني المشكلة التي تعانيها اكثر بلدان الارض من عدم التوازن بين عدد النساء وعدد الرجال فيها ، باستطاعته ، اذا فكر ونظم ووجه اجتماعياً ، ان يتغلب تغلباً شبه تام على مشكلة عدم الزواج ! . والى اللواتي يرين بأن الامومة ممكنة دون تخصص ، اقول بأن الامومة ، وواجبها بناء الناس ، تحتاج على الاقل ، الى تخصص لا ينقص عن تخصص المهتمين ببعض فروع بناء الناس ، بالطب مثلاً ، وهو الذي يعنى ببناء اجساد الناس ! او بالتعليم وهو الذي يعنى ببناء عقولهم .

وذلك ما يقودنا الى الجواب على الفئة الثالثة التي تعتقد بان الطموح العلمي لا يجوز ان يقف عند الامومة ! .

فهل بين فتياتنا من تطمح الى علم اعلى من الطب ؟ . . ومع ذلك فعلم النفس فرع من فروع الامومة ! .

وهل بين فتياتنا من تطمح الى تخصص اعمق من علم النفس ؟ . . ومع ذلك فعلم النفس فرع من فروع الامومة .

وفوق الطب وعلم النفس تحتاج الام الى ايمان حقيقي للاشراف على نمو الاتجاهات الروحية عند الطفل ، والى المام بالفلسفة للتأكد من صواب اتجاهاته العقلية ، والى المام عملي بالاجتماع لتهيئة الجو الصالح لنشوء الطفل ! كما تحتاج الى معرفة بالفن لتهذيب الذوق عند طفلها ، والى معرفة بالاقتصاد لضبط اقتصاديات بيتها ، والى اطلاع واع على الحضارة الانسانية لكي تستطيع ان تنقل طفلها في اشهر طفولته من عهده الاولي الى القرن العشرين ! . فضلاً عما تحتاجه من تخصص في التصرف لكي تحول جو بيتها الى جو غبطة وبركة وسلام .

فهل عندنا كثيرات من الامهات صاحبات مثل هذا الاختصاص العالي ، الذي يفوق اختصاص المتخرجين الى معهد البوليتكنيك ؟

واذا كان الجواب هو اننا ما برحنا منذ القديم ننشىء الاولاد « ونربيهم » دون ان نحمل انفسنا « الهم » ، فالرد هو ان مشاكلنا كلها ترجع الى الذين انشأناهم دون ان نحمل امهاتهم هذا « الهم » .

قد يصبح باستطاعتنا ان نطلب هذا الاختصاص الصعب ، ولكن ، بعد ان يكون مستوى التربية والثقافة العام قد ارتفع عما هو اليوم ، بحيث تصبح نشأة الفتاة بحد ذاتها تخصصاً بالامومة ! .

« الشراع » رشدي المعلوف



٢٣ تموز ١٩٤٨ – اعلن اليهود انهم مستعدون للتفاوض مع العرب دون وساطة الكونت برنادوت .

– قررت اندونيسيا قطع المفاوضات السياسية مع هولاندا .

٢٤ – منحت الجمعية الوطنية الفرنسية ثقتها للمسيو اندره ماري باكثرية الاصوات لتأليف الوزارة .

– سفير واشنطن بموسكو يغادرها الى لندن للاجتماع بلجنة برلين .

– افتتح في باريس مؤتمر الدول الـ ١٦ لانماش اوروبا .

٢٦ – اختتم المؤتمر الشيوعي اليوغوسلافي اعماله بتعيين لجنة للرد على تهم الكومنفرم .

– رفض اليهود تجريد القدس من السلاح .

٢٧ – رفض مجلس الامن الاقتراح السوري باحالة قضية فلسطين على محكمة العدل الدولية .

– قدمت لجنة التحقيق الرباعية تقريرها بشأن ليبيا معلنة ان طرابلس الغرب وبرقة وفزان غير اهل للاستقلال .

٢٨ – اقترح الملك بول على بريطانيا ان تتخلى عن قبرص لليونان .

٢٩ – صرح المستر بيفن امام مجلس العموم بان الوضع الدولي الراهن قد يضطر بريطانيا لاستخدام القوة .

– افتتحت الدورة الاولمبية الرابعة عشرة في لندن .

٣٠ – عقد في لندن مؤتمر عسكري خطير اشترك فيه بيفن ومنتغمري وفايدر قائد الطيران وامير البحر كننغهام .

– استقال رئيس جمهورية المجر من منصبه .

٣١ – قدم سفراء اميركا وانكلترا وفرنسا في موسكو مذكرات الى وزارة الخارجية السوفياتية بشأن ازمة برلين .

٢ آب – ارجأ مجلس الامن اجتماعه الى اجل غير مسمى لمناقشة قضية المشردين العرب .

– اقترح الرفيق فيشنسكي في مؤتمر الملاحة في الدانوب ابعاد فرنسا وانكلترا من الاشراف على الدانوب .

٤ – احتجت باريس على القاهرة لانها اباحت لنفسها حق تفتيش السفن التي تمر بقناة السويس .

٥ – انكرت اميركا وبريطانيا تهم يوغوسلافيا في تريستا امام مجلس الامن .

٦ – رفعت السلطات الروسية الحظر عن قسم من الاموال الغربية المجمدة .

٨ – تتوالى هزائم الثوار في اليونان ، ويتوقع ان ينقل مقر قيادتهم الى البانيا .

– اقترحت استراليا وضع ليبيا تحت وصاية بريطانيا .

– هدد الهولنديون الجمهورية الاندونيسية بالحرب اذا لم تراع شروط الهدنة المعقودة بين الطرفين .

٩ – ابدت الولايات المتحدة استعدادها لدعم طلب دولة اسرائيل المزعومة بالانضمام الى هيئة الامم المتحدة .

١٠ – هدد وزير خارجية الولايات المتحدة بالاستقالة إذا نفذ ترومن مشروعه الجديد بضم دولة اسرائيل المزعومة الى هيئة الامم .

– اعلن العرب رسميا رفضهم لمفاوضة اليهود .

١١ – ادلى الجنرال مرشال بتصريح انتقد فيه سياسة الحكومة السوفياتية في مؤتمر بلغراد بشأن تنظيم الملاحة في الدانوب .

– طلبت حكومة حيدر اباد من الهند ان تأمر باجلاء جيوشها عن ارضيها في الحال .

١٢ – باتت الهدنة في القدس في خطر بعد تكرار حوادث خرقها من قبل اليهود .

١٤ – طلب بن غريون من مجلس الامن اجلاء الجيوش العربية عن فلسطين .

– غادر غلوب باشا عمان الى لندن بمهمة رسمية .

– وافق الخبراء الالمان على انشاء حكومة اتحادية بالمانيا الغربية .

١٦ – القدس تشتعل بنار القنابل المتبادلة بين العرب واليهود بعد فشل محادثات تجريد القدس من السلاح .

– عقد في الكرملين الاجتماع السادس بين ممثلي الدول الغربية والرفيق مولوتوف .

١٧ – طلب مندوبو الدول الغربية الاجتماع بستالين بعد ان اخفق اجتماعهم بمولوتوف .

١٨ – عقد مجلس الامن اجتماعاً طويلاً لم يتخذ في اثنائه اي قرار بشأن قضية اللاجئين العرب .

– نقضت روسيا قرار مجلس الامن بضم سيلان لهيئة الامم المتحدة .

– فر ماركوس قائد الثوار اليونان الى البانيا .

١٩ – استقالت الوزارة السورية .

٢٠ – عقد ناظر الحربية الاميركية اجتماعاً مع رؤساء اركان الحرب لتبادل وجهات النظر في شئون الدفاع عن الولايات المتحدة .

– يروج في الاوساط العربية المطلعة ان تعديلاً خطيراً سيطرأ على سياسة الجامعة العربية في القريب العاجل .

– تم توحيد الجيش الاردني والعراقي تحت القيادة العراقية .

– طلبت واشنطن من موسكو استدعاء قنصلها في نيويورك .

٢١ – اعلنت الحكومة البريطانية عن عزمها بعدم تأييد طلب اليهود بالانضمام الى هيئة الامم المتحدة .

٢٢ – احتجت الحبشة على المستر ديوي لتأييده تولية ايطاليا مستعمراتها السابقة تحت وصاية هيئة الامم .

٢٣ – تجري اتصالات ومباحثات بين رؤساء الدول العربية لتوحيد قيادة الجيوش العربية بعد توحيد الجيش العراقي والاردني .

٢٤ – اجتمع ممثلو الدول الغربية بالمارشال ستالين .

– توقف القتال حول سلسلة جبال غراموس في اليونان .

– اطلق جنود يوغوسلافيون النار على دورية من الشرطة الايطالية كانت تقوم بجولة مراقبة على الحدود .

– عكفت لندن وواشنطن على دراسة نتائج اجتماع مندوبي الغرب بستالين .

– صرح المشرف المالي في الدولة اليهودية المزعومة في المجلس الصهيوني بان المستقبل القريب يخبىء لليهود في فلسطين اياماً قاسية .

مطابع صادر ريحاني – تلفون ٦٨ – ٦٢